آثار المعاصي على القلب والبدن

للعلامة بن قيم الجوزية رحمه الله

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ ٢٠١٢

حقوق الطبع لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام علـــى ســـيد المرســـلين،وعلى آلـــه وصـــحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد:

لقد حذر الله تعالى من الوقوع في المعاصي،حيث قال:{تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّـــهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤) } [النساء]

وقال تعالى:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب:٣٦]

وقال تعالى:{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣)} [الزمر]

وهذا بحث قيم من أبحاث العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله أخذته من كتابه الممتع النافع " الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء" ...

وفي هذا بحث يتحدث فيه عن آثار المعاصي على القلب والبدن،وقد حاول استقصاءها بشكل عجيب ...

وقد قسمته لبابين :

الباب الأول=الخلاصة في أحكام المعصية وهو من الموسوعة الفقهية ...

الباب الثاني=أضرار المعصية على النفس والبدن،وهو من الكتاب نفسه،وقد ذكر أشياء كثيرة فيه ....

وأما عملي في الكتاب فهو :

١- إضافة بحث كامل عن أحكام المعصية وهو الباب الأول

٢- تخريج الأحاديث من مصادرها الرئيسة مع وضع النصوص الحديثية من مصادرها مباشرة ؛ ذلك لأنه كثيرا ما يورد الحديث بالمعنى ...

٣- الحكم على الأحاديث بما يناسبها جرحا وتعديلاً ...

٤- شرح مفردات الحديث

٥- شرح كثير من الآيات القرآنية ....

٦- زيادة بعض النصوص الحديثية التي تؤيد الفكرة التي ساقها المؤلف رحمه الله

٧- وضع عناوين جزئية للموضوعات

عَنْ أَبِي الْجَلْدِ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْصَى الْحَوَارِيِّينَ:" لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ،وَإِنَّ الْقَاسِيَ قَلْبُهُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ وَلَكِنَّكُمُ انْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَبِيدٌ،وَالنَّاسُ رَجُلَانِ:مُعَافًى وَمُبْتَلًى،فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ فِي بَلِيَّتِهِمْ،وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى الْعَافِيَةِ "[1]

نسأل الله تعالى أن يعصمنا وإياكم من الزلل والمعاصي بمنه وكرمه ..

كما أسأله أن ينفع به مؤلفه ومحققه وقارئه وناشره في الدارين .

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ٢٢ شوال ١٤٣٣ هـ الموافق ل ٢٠١٢/٩/٩ م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[1] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٥٠)(٣١١) والزهد لهناد بن السري (٢/ ٥٤٣) والزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٤٤)(١٣٥) صحيح مقطوع

الباب الأول

الخلاصة في أحكام المعصية

التَّعْرِيفُ :

الْمَعْصِيَة فِي اللُّغَة:الْخُرُوجُ مِنَ الطَّاعَة يُقَال عَصَاهُ مَعْصِيَةً وَعِصْيَانًا:خَرَجَ مِنْ طَاعَتِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ فَهُوَ عَاصٍ وَعَصَّاءٌ وَعَصِيٌّ .[٢]

العصيانُ:خلافُ الطَّاعَة.عَصى العبدُ رَبَّهُ إذا خالَف أَمْرَه،وَعَصَى فُلَانٌ أميرَه يَعْصيه عَصْياً وعِصْياناً ومَعْصِيَةً إذا لَمْ يُطِعْهُ،فَهُوَ عاصٍ وعَصِيٌّ.قَالَ سِيبَوَيْهِ:لَا يجيءُ هَذَا الضَّرْبُ عَلَى مَفْعِلٍ إِلَّا وَفِيهِ الْهَاءُ لأَنه إِنْ جاءَ عَلَى مَفْعِلٍ،بِغَيْرِ هاءٍ،اعْتلَّ فعدَلوا إِلى الأَخَفِّ.وعاصَاهُ أَيضاً:مثلُ عَصَاه.وَيُقَالُ للجَماعة إِذا خَرَجَتْ عَنْ طاعة السلْطان:قَد اسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ.وَفِي الْحَدِيث:لَوْلَا أَنْ نَعْصِيَ اللهَ مَا عَصانا"أَي لَمْ يَمْتَنِعْ عَنْ إِجابَتنا إِذا دَعَوْناه،فجعَل الجوابَ بمنْزِلة الخطاب فسمَّاهُ عِصْياناً كَقَوْلِه تَعَالَى:وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ.وَفِي الْحَدِيث:أَنه غيَّرَ اسْم العاصِي؛ إِنَّمَا غَيَّره لأَنَّ شعارَ الْمُؤْمن الطَّاعة،والعِصْيانُ ضِدُّها.[٣]

وَفِي الاصْطِلاَح:قَال الْبَزْدَوِيُّ:الْمَعْصِيَةُ اسْمٌ لِفِعْلٍ حَرَامٍ مَقْصُود بِعَيْنِه أَيْ نَفْسُ الْفِعْلِ مَقْصُودٌ مَعَ الْعِلْمِ بِحُرْمَتِهِ دُونَ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ،فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَقْصُودَةً لَكَانَ كُفْرًا.[٤] .

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة :

الزَّلَّةُ :

مِنْ مَعَانِي الزَّلَّة فِي اللُّغَة:السَّقْطَةُ وَالْخَطِيئَةُ .[٥]

وَالزَّلَّةُ فِي الاصْطِلاَحِ اسْمٌ لِفِعْلٍ غَيْرِ مَقْصُودٍ فِي عَيْنِهِ لَكِنَّهُ اتَّصَل الْفَاعِل بِهِ عَنْ فِعْلٍ مُبَاحٍ قَصَدَهُ فَزَل بِشُغْلِهِ عَنْهُ إِلَى مَا هُوَ حَرَامٌ لَمْ يَقْصِدْهُ أَصْلاً [٦] .

---

[٢] – الصحاح ،والمصباح المنير ،والمعجم الوسيط .

[٣] – لسان العرب (١٥/ ٦٧) وتاج العروس (٣٩/ ٥٨)

[٤] – كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (٣/ ٢٠٠)

[٥] – المعجم الوسيط

[٦] – كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (٣/ ٢٠٠)

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَعْصِيَةِ وَالزَّلَّةِ أَنَّ الْفِعْلَ الْمُحَرَّمَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِعَيْنِهِ فِي الْمَعْصِيَةِ بِخِلَافِ الزَّلَّةِ .

أَقْسَامُ الْمَعَاصِي بِاعْتِبَارِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ عُقُوبَةٍ :

لِلْعُلَمَاءِ فِي تَقْسِيمِ الْمَعَاصِي بِاعْتِبَارِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ عُقُوبَةٍ ثَلاَثَةُ آرَاءٍ :

الأَوَّل:قَال جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ:إِنَّ الْمَعَاصِيَ تَنْقَسِمُ إِلَى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } [الحجرات:٧] فَقَدْ جَعَل اللَّهُ تَعَالَى الْمَعَاصِيَ رُتَبًا ثَلاَثَةً وَسَمَّى بَعْضَ الْمَعَاصِيَ فُسُوقًا دُونَ بَعْضٍ،وقَوْله تَعَالَى:{ {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ} [النجم:٣٢][٧] وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ،عَنْ أَبِيه،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" الْكَبَائِرُ سَبْعٌ:الشِّرْكُ بِاللَّه،وَقَتْلُ النَّفْسِ،وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ،وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ،وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ،وَالتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ "[٨]

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ:كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:" أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ الْمُصَلُّونَ ، أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ يُتِمُّ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ يَرَاهَا لِلَّهِ عَلَيْهِ حَقًّا ، وَيُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ ، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ " ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ:" الْكَبَائِرُ تِسْعٌ ، أَعْظَمُهُنَّ إِشْرَاكٌ بِاللهِ ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَالسِّحْرُ ، وَاسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، مَنْ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُنَّ كَانَ مَعِي فِي جَنَّةٍ مَصَارِيعُهَا مِنْ ذَهَبٍ "[٩]

---

[٧] – مِنْ صِفَاتِ هؤُلاءِ الْمُحْسِنِينَ أَنَّهم يَبْتَعِدُونَ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ،وَعَنِ الفَوَاحِشِ،وَلا يَجْتَرِحُونَ السَّيِّئات،وَلاَ يَرْتَكِبُونَ المُحرَّمَاتِ وَالكَبَائِرَ (كَالقَتْلِ وَالزِّنا وَأَكْلِ الرِّبا وَأَكلِ مَالِ اليَتِيمِ،وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ،وَقَذْفِ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاتِ) .وَإِذا وَقَعَتْ مِنْهُمْ بَعْضُ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالى وَاسِعُ المَغْفِرَةِ يَغْفِرُها لَهُم لِقَولِهِ تَعَالى {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ} .أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٦٩٥،بترقيم الشاملة آليا)

[٨] – الجهاد لابن أبي عاصم (٢/ ٦٤٨)(٢٧٤) حسن

[٩] – السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣١٣)(٢٠٧٥٢) حسن

وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ:«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ،وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ،وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ،مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ» [١٠]

فَخَصَّ الْكَبَائِرَ بِبَعْضِ الذُّنُوبِ،وَلَوْ كَانَتِ الذُّنُوبُ كُلُّهَا كَبَائِرَ لَمْ يَسُغْ ذَلِكَ،وَلِأَنَّ مَا عَظُمَتْ مَفْسَدَتُهُ أَحَقُّ بِاسْمِ الْكَبِيرَةِ عَلَى أَنَّ قَوْلَه تَعَالَى:{ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} [النساء:٣١] صَرِيحٌ فِي انْقِسَامِ الذُّنُوبِ إِلَى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ[١١] .

قَالَ الْغَزَالِيُّ:لاَ يَلِيقُ إِنْكَارُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ وَقَدْ عُرِفَا مِنْ مَدَارِكِ الشَّرْعِ .[١٢]

الثَّانِي:أَنْكَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ فِي الذُّنُوبِ صَغِيرَةً وَقَالُوا:بَلْ سَائِرُ الْمَعَاصِي كَبَائِرُ،مِنْهُمُ الأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ الإِسْفَرَائِينِيُّ،وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلاَّنِيُّ،وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي الإِرْشَادِ،وَابْنُ الْقُشَيْرِيُّ فِي الْمُرْشِدِ بَلِ حَكَاهُ ابْنُ فُورَكٍ عَنِ الأَشَاعِرَةِ وَاخْتَارَهُ فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ:مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا كُلُّهَا كَبَائِرُ،وَإِنَّمَا يُقَالُ لِبَعْضِهَا صَغِيرَةٌ وَكَبِيرَةٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا ،[١٣]كَمَا يُقَالُ:الزِّنَا صَغِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُفْرِ،وَالْقُبْلَةُ الْمُحَرَّمَةُ صَغِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الزِّنَا،وَكُلُّهَا كَبَائِرُ،قَالَ الزَّرْكَشِيُّ:لَعَلَ أَصْحَابَ هَذَا الْوَجْهِ

---

[١٠] – صحيح مسلم (١/ ٢٠٩)١٦ – (٢٣٣)

[١١] – إِذَا اجْتَنَبْتُمْ مُقَارَفَةَ كَبَائِرِ الآثَامِ وَالذُّنُوبِ التِي نَهَاكُمُ اللهُ عَنْهَا،كَفَّرَ عَنْكُمْ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ،وَأَدْخَلَكُمْ فِي جَنَّتِه،وَرَحِمَكُمْ مَا دُمْتُمْ بَاذِلِينَ جُهْدَكُمْ فِي الاسْتِقَامَةِ.

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي عَدَدِ الكَبَائِرِ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهَا سَبْعٌ: (الشِّرْكُ بِاللهِ،وَقَتْلُ النَّفْسِ التِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ،وَالسِّحْرُ،وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ،وَأَكْلُ الرِّبَا،وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ،وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ) وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّها أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (الكَبَائِرُ إِلى سَبْعِينَ أَقْرَبُ،إِذْ لاَ صَغِيرَةَ مَعَ الإِصْرَارِ،وَلاَ كَبِيرَةَ مَعَ الاسْتِغْفَارِ) .وَيُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ الذَنْبَ يُرْتَكَبُ لِعَارِضٍ مِنْ ثَوْرَةِ شَهْوَةٍ،أَوْ غَضَبٍ،وَصَاحِبُهُ يَخَافُ اللهَ،وَلاَ يَسْتَحِلُّ مَحَارِمَهُ فَهُوَ مِنَ السَّيِّئَاتِ يُكَفِّرُهَا اللهُ.وَكُلُّ ذَنْبٍ يُرْتَكَبُ مَعَ التَّهَاوُنِ بِالأَمْرِ،وَعَدَمِ الْمُبَالاَةِ يُعَدُّ كَبِيراً مَهْمَا صَغُرَ ضَرَرُهُ،إذا كَانَ فِيهِ إِصْرَارٌ وَاسْتِهْتَارٌ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٢٤،بترقيم الشاملة آليا)

[١٢] – الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (١/ ١٣٤) والموافقات (١/ ٣٣٨) والزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٨)

[١٣] – الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٧)

كَرِهُوا تَسْمِيَةَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ صَغِيرَةً إِجْلَالاً لِلَّهِ وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهِ مَعَ أَنَّهُمْ وَافَقُوا فِي الْجَرْحِ أَنَّهُ لاَ يَكُونُ بِمُطْلَقِ الْمَعْصِيَةِ .[١٤]

وَالثَّالِثُ:قَوْلُ الْحَلِيمِيِّ:إِلَى ثَلاَثَةِ أَقْسَامٍ صَغِيرَةٍ،وَكَبِيرَةٍ وَفَاحِشَةٍ،فَقَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ كَبِيرَةٌ،فَإِذَا قَتَلَ ذَا رَحِمٍ فَفَاحِشَةٌ،فَأَمَّا الْخَدْشَةُ وَالضَّرْبَةُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فَصَغِيرَةٌ.وَجَعَلَ سَائِرَ الذُّنُوبِ هَكَذَا،وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْخِلاَفَ لَفْظِيٌّ،فَإِنَّ رُتْبَةَ الْكَبَائِرِ تَتَفَاوَتُ قَطْعًا.[١٥]

أَقْسَامُ الْمَعَاصِي بِاعْتِبَارِ مَيْلِ النَّفْسِ إِلَيْهَا

قَسَّمَ الْمَاوَرْدِيُّ الْمَعَاصِيَ الَّتِي يَمْنَعُ الشَّرْعُ مِنْهَا وَاسْتَقَرَّ التَّكْلِيفُ عَقْلاً أَوْ شَرْعًا بِالنَّهْيِ عَنْهَا إِلَى قِسْمَيْنِ :

أ – مَا تَكُونُ النُّفُوسُ دَاعِيَةً إِلَيْهَا وَالشَّهَوَاتُ بَاعِثَةً عَلَيْهَا كَالسِّفَاحِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ،فَقَدْ زَجَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا لِقُوَّةِ الْبَاعِثِ عَلَيْهَا وَشِدَّةِ الْمَيْلِ إِلَيْهَا بِنَوْعَيْنِ مِنَ الزَّجْرِ :

أَحَدُهُمَا:حَدٌّ عَاجِلٌ يَرْتَدِعُ بِهِ الْجَرِيءُ .

وَالثَّانِي:وَعِيدٌ آجِلٌ يَزْدَجِرُ بِهِ التَّقِيُّ .

ب – مَا تَكُونُ النُّفُوسُ نَافِرَةً مِنْهَا،وَالشَّهَوَاتُ مَصْرُوفَةً عَنْهَا كَأَكْلِ الْخَبَائِثِ وَالْمُسْتَقْذَرَاتِ وَشُرْبِ السَّمُومِ الْمُتْلِفَاتِ فَاقْتَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الزَّجْرِ عَنْهَا بِالْوَعِيدِ وَحْدَهُ دُونَ الْحَدِّ،لِأَنَّ النُّفُوسَ مُسْعَدَةٌ[١٦] فِي الزَّجْرِ عَنْهَا،وَالشَّهَوَاتُ مَصْرُوفَةٌ عَنْ رُكُوبِ الْمَحْظُورِ مِنْهَا .[١٧]

قَالَ الْهَيْتَمِيُّ:وَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ زَاجِرٍ عَنْ الذُّنُوبِ هُوَ خَوْفُ اللَّهِ تَعَالَى وَخَشْيَةُ انْتِقَامِهِ وَسَطْوَتِهِ،وَحَذَرُ عِقَابِهِ وَغَضَبِهِ وَبَطْشِهِ {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور:٦٣] .

---

[١٤] – البحر المحيط في أصول الفقه (٦/ ١٥٣)

[١٥] – البحر المحيط في أصول الفقه (٦/ ١٥٣)

[١٦] – مسعدة أي معانة ففي المعجم الوسيط : أسعد فلانًا : أعانه .

[١٧] – أدب الدنيا والدين للماوردي ص ١٥٢ ط .دار ابن كثير .وأدب الدنيا والدين (ص: ٩٤)

عَنْ أَنَسٍ،قَالَ:دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُ:كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ:أَرْجُو اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ،وَأَخَافُ ذُنُوبِي،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ الَّذِي يَرْجُو،وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[١٨] .

وعَنْ وُهَيْبٍ،قَالَ:قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:«حُبُّ الْفِرْدَوْسِ ، وَخَشْيَةُ جَهَنَّمَ يُورِثَانِ الصَّبْرَ عَلَى الْمَشَقَّةِ وَيُبَاعِدَانِ الْعَبْدَ مِنْ رَاحَةِ الدُّنْيَا»[١٩] .

وَعَنْ الْحَسَنِ قَالَ:وَاللَّهِ لَقَدْ مَضَى بَيْنَ أَيْدِيكُمْ أَقْوَامٌ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُهُمْ عَدَدَ الْحَصَى ذَهَبًا أَنْ لَا يَنْجُوَ لِعِظَمِ الذَّنْبِ فِي نَفْسِهِ[٢٠] .

وعَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،إِذْ قَالَ لَهُمْ:«هَلْ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ؟» قَالُوا:مَا نَسْمَعُ مِنْ شَيْءٍ،قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ:«إِنِّي لَأَسْمَعُ أَطِيطَ السَّمَاءِ وَمَا تُلَامُ أَنْ تَئِطَّ،وَمَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ»[٢١]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا تَدْرُونَ تَنْجُونَ أَوْ لَا تَنْجُونَ»[٢٢] .

وعَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيِّ،قَالَ:إِنَّهُ مَنْ يَأْتِي الْخَطِيئَةَ وَهُوَ يَضْحَكُ، يَدْخُلُ النَّارَ وَهُوَ يَبْكِي.[٢٣] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ،فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً،وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً

---

[١٨] – السنن الكبرى للنسائي (٩/ ٣٩٠)(١٠٨٣٤) صحيح

[١٩] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١٤٢) صحيح مقطوع

[٢٠] – الترغيب والترهيب لقوام السنة (٢/ ١٠٩)(١٢٥٧) وشرح السنة للبغوي (١٤/ ٣٧٤) حسن

[٢١] – تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٢٥٩)(٢٥٠) صحيح

[٢٢] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٣٥٦)(٧٩٠٥) صحيح

[٢٣] – الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (مقابل) (٩/ ٣٥١)(٦٧٥٧) صحيح

وَاحِدَةً،فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ،وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»[٢٤].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ:{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤] قَالَ:«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[٢٥].

وعَنْ عَائِشَةَ،أَنَّهَا قَالَتْ:يَا رَسُولَ اللهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:{الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [المؤمنون:٦٠] أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ يَا رَسُولَ اللهِ،هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ،وَهُوَ يَخَافُ اللهَ؟ قَالَ:" لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ،يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ،وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يُخَافُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ " رَوَاهُ أَحْمَدُ[٢٦].

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ:يَا أَبَا سَعِيدٍ كَيْفَ نَصْنَعُ بِمُجَالَسَةِ قَوْمٍ يُحَدِّثُونَا عَنْ الرَّجَاءِ حَتَّى تَكَادَ قُلُوبُنَا تَطِيرُ؟ فَقَالَ لَهُ:إِنَّك وَاَللَّهِ أَنْ تَصْحَبَ قَوْمًا يُخَوِّفُونَك حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا خَيْرٌ لَك مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤَمِّنُونَك حَتَّى تَلْحَقَك الْمَخَاوِفُ.وَلَمَّا طُعِنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَرُبَتْ وَفَاتُهُ قَالَ لِابْنِهِ:وَيْلَك ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْضِ لَا أُمَّ لَك وَوَيْلِي وَأَيُّ وَيْلِي إنْ لَمْ يَرْحَمْنِي،وَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ:مَا هَذَا الْخَوْفُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ بِك الْفُتُوحَ وَمَصَّرَ بِك الْأَمْصَارَ وَفَعَلَ بِك وَفَعَلَ؟ قَالَ:وَدِدْت أَنْ أَنْجُوَ لَا عَلَيَّ وَلَا لِي.وَفِي رِوَايَةٍ:لَا أَجْرًا وَلَا وِزْرًا.وَكَانَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذَا فَرَغَ مِنْ وُضُوئِهِ لِلصَّلَاةِ وَصَارَ بَيْنَ وُضُوئِهِ وَصَلَاتِهِ أَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ وَنَفْضَةٌ،فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ،فَقَالَ:وَيْحَكُمْ أَتَدْرُونَ إلَى مَنْ أَقُومُ،وَمَنْ أُرِيدُ أَنْ أُنَاجِيَ "[٢٧].

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:الْخَوْفُ يَمْنَعُنِي مِنْ أَكْلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَمَا أَشْتَهِيهِ.

---

[٢٤] - صحيح البخاري (٨/ ٩٩)(٦٤٦٩)

[٢٥] - صحيح مسلم (١/ ١٩٢)٣٥١ - (٢٠٦) وصحيح البخاري (٦/ ١١٢)(٤٧٧١)

[٢٦] - مسند أحمد ط الرسالة (٤٢/ ١٥٦)(٢٥٢٦٣) حسن

[٢٧] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ١٣٣)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّه،يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:الإِمَامُ العَادِلُ،وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّه،وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِد،وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّه اجْتَمَعَا عَلَيْه وَتَفَرَّقَا عَلَيْه،وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ،فَقَالَ:إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ،وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ،أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ،وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ "[٢٨]

رَجُلًا ذَكَرَ اللَّهَ أَيْ وَعِيدَهُ وَعِقَابَهُ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ:أَيْ خَوْفًا مِمَّا جَنَاهُ وَاقْتَرَفَهُ مِنْ الْمُخَالَفَاتِ وَالذُّنُوبِ.[٢٩].

اسْتِدْرَاجُ أَهْلِ الْمَعَاصِي بِالنِّعَمِ

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ:وَإِنْ نَالَ أَهْلُ الْمَعَاصِي لَذَّةً مِنْ عَيْشٍ أَوْ أَدْرَكُوا أُمْنِيَةً مِنْ دُنْيَا كَانَتْ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً،بَلْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا وَنِقْمَةً.[٣٠]

وَوَرَدَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيه مَا يُحِبُّ،فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ " ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ:{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِه فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام:٤٤][٣١] .

---

[٢٨] – صحيح البخاري (١/ ١٣٣)(٦٦٠) وصحيح مسلم (٢/ ٧١٥)٩١ – (١٠٣١)

[ش(سبعة) أشخاص وكل من يتصف بصفاتهم.(ظله) ظل عرشه وكنف رحمته.(معلق في المساجد) أي شديد الحب لها والملازمة للجماعة فيها.(اجتمعا عليه) اجتمعت قلوبهما وأجسادهما على الحب في الله.(تفرقا) استمرا على تلك المحبة حتى فرق بينهما الموت.(طلبته) دعته للزنا.(ذات منصب) امرأة لها مكانة ووجاهة ومال ونسب.(أخفى) الصدقة وأسرها عند إخراجها.(لا تعلم شماله) كناية عن المبالغة في السر والإخفاء.(خاليا) من الخلاء وهو موضع ليس فيه أحد من الناس.(ففاضت عيناه) ذرفت بالدموع إجلالا لله وشوقا إلى لقائه]

[٢٩] – الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٢٦)

[٣٠] – أدب الدنيا والدين (ص: ٩٤)

[٣١] – مسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ٥٤٧)(١٧٣١١) حسن لغيره

قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الاسْتِدْرَاجُ هُوَ الْأَخْذُ فِي الشَّيْءِ،وَالذَّهَابُ فِيهِ دَرَجَةً فَدَرَجَةً،كَالْمَرَاقِي وَالْمَنَازِلِ فِي ارْتِقَائِهِ وَنُزُولِه،وَمَعْنَى اسْتِدْرَاجِ اللَّهِ اسْتِدْرَاجُهُمْ قَلِيلًا قَلِيلًا إِلَى مَا يُهْلِكُهُمْ،وَيُضَاعِفُ عُقُبَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ مَا يُرَادُ بِهِمْ،وَذَلِكَ أَنَّ تَوَاتُرَ اللَّهِ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ مَعَ انْهِمَاكِهِمْ فِي الْغَيِّ،فَكُلَّمَا جَدَّدَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ ازْدَادُوا بَطَرًا وَجَدَّدُوا مَعْصِيَةً،فَيَتَدَرَّجُونَ فِي الْمَعَاصِي بِسَبَبِ تَرَادُفِ النِّعَمِ،ظَانِّينَ أَنَّ مُتَوَاتِرَةَ النِّعَمِ أَثَرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَتَقْرِيبٌ،وَإِنَّمَا هِيَ خِذْلَانٌ مِنْهُ

أَحْوَال النَّاسِ فِي فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي:

قَال الْمَاوَرْدِيُّ:لَيْسَ يَخْلُو حَال النَّاسِ فِيمَا أُمِرُوا بِهِ وَنُهُوا عَنْهُ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي مِنْ أَرْبَعَةِ أَحْوَالٍ :

فَمِنْهُمْ:مَنْ يَسْتَجِيبُ إِلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَيَكُفُّ عَنِ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي،وَهَذَا أَكْمَلُ أَحْوَال أَهْلِ الدِّينِ،وَأَفْضَل صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ،فَهَذَا يَسْتَحِقُّ جَزَاءَ الْعَامِلِينَ وَثَوَابَ الْمُطِيعِينَ .وَمِنْهُمْ:مَنْ يَمْتَنِعُ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَيَقْدَمُ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي،وَهِيَ أَخْبَثُ أَحْوَال الْمُكَلَّفِينَ،وَشَرُّ صِفَاتِ الْمُتَعَبِّدِينَ،فَهَذَا يَسْتَحِقُّ عَذَابَ اللاَّهِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ،وَعَذَابَ الْمُجْتَرِئِ عَلَى مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنْ مَعَاصِيهِ،وَقَدْ قَال ابْنُ شُبْرُمَةَ:عَجِبْتُ لَمِنْ يَحْتَمِي مِنَ الطَّيِّبَاتِ مَخَافَةَ الدَّاءِ كَيْفَ لاَ يَحْتَمِي مِنَ الْمَعَاصِي مَخَافَةَ النَّارِ ؟

وَمِنْهُمْ:مَنْ يَسْتَجِيبُ إِلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَيُقْدَمُ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي،فَهَذَا يَسْتَحِقُّ عَذَابَ الْمُجْتَرِئِ لأَنَّهُ تَوَرَّطَ بِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ عَلَى الإِقْدَامِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي فِعْلِ الطَّاعَةِ،قَال بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:أَفْضَل النَّاسِ مَنْ لَمْ تُفْسِدُ الشَّهْوَةُ دِينَهُ وَلَمْ تُزِل الشُّبْهَةُ يَقِينَهُ .[٣٢]

قَال الْفَقِيهُ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ:فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَرْكَ الْمَعْصِيَةِ أَفْضَلُ مِنْ أَعْمَال الطَّاعَةِ،لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اشْتَرَطَ فِي الْحَسَنَةِ الْمَجِيءَ بِهَا إِلَى الْآخِرَةِ،وَفِي تَرْكِ الذُّنُوبِ لَمْ يَشْتَرِطْ شَيْئًا سِوَى التَّرْكِ،قَالَ تَعَالَى:{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [الأنعام:١٦٠]،وَقَالَ تَعَالَى:{وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى {٤٠} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات:٤٠-٤١]،فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَفْوَ "[٣٣]

وَتَبْعِيدٌ،(ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَيِ: اسْتِشْهَادًا أَوِ اعْتِضَادًا {فَلَمَّا نَسُوا} [الأعراف: ١٦٥] أَيْ: عَهْدَهُ سُبْحَانَهُ،أَوْ تَرَكُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ،وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ: {مَا ذُكِّرُوا بِهِ} [الأنعام: ٤٤] أَيْ: وُعِظُوا فَتَحْنَا بِالتَّخْفِيفِ وَيُشَدَّدُ {عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ٤٤] أَيْ: مِنْ أَسْبَابِ النِّعَمِ الَّتِي فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ مُوجِبَاتِ النِّقَمِ {حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا} [الأنعام: ٤٤] أَيْ: أُعْطُوا مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَصِحَّةِ الْبَدَنِ وَطُولِ الْعُمُرِ {أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً} [الأنعام: ٤٤] أَيْ: فَجْأَةً بِالْمَوْتِ أَوِ الْعَذَابِ،فَإِنَّهُ أَشَدُّ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ {فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: ٤٤] أَيْ: وَاجِمُونَ سَاكِتُونَ مُتَحَسِّرُونَ مُتَحَيِّرُونَ آيِسُونَ.(رَوَاهُ أَحْمَدُ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٥٧)

[٣٢] – أدب الدنيا والدين (ص: ٩٦)

[٣٣] – تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي (ص: ٣٧٤)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْتَنِعُ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ،وَيَكُفُّ عَنْ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي فَهَذَا يَسْتَحِقُّ عَذَابَ اللَّاهِي عَنْ دِينِهِ،الْمُنْذَرِ بِقِلَّةِ يَقِينِهِ.[٣٤]

التَّوْبَةُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ:

التَّوْبَةُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَرِيضَةٌ عَلَى الْفَوْرِ صَغِيرَةً كَانَتْ أَوْ كَبِيرَةً،فَتَجِبُ التَّوْبَةُ عَنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ .[٣٥]

فالتَّوْبَةُ مِنْ أُصُولِ الْإِسْلَامِ الْمُهِمَّةِ،وَقَوَاعِدِ الدِّينِ،وَأَوَّلُ مَنَازِلِ السَّالِكِينَ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ) فَالتَّوْبَةُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَاجِبَةٌ عَلَى الْفَوْرِ بِالِاتِّفَاقِ،وَقَدْ تَقَدَّمَتْ صِفَتُهَا،وَتَصِحُّ التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ وَإِنْ كَانَ مُلَابِسًا ذَنْبًا آخَرَ مُصِرًّا عَلَيْهِ،وَلَوْ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ،ثُمَّ فَعَلَهُ مَرَّةً أُخْرَى،لَمْ تَبْطُلِ التَّوْبَةُ،بَلْ هُوَ مُطَالَبٌ بِالذَّنْبِ الثَّانِي دُونَ الْأَوَّلِ[٣٦] .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور:٣١]

وارْجِعُوا تَائِبِينَ إِلَى طَاعَةِ اللهِ يا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ،وافْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُم مِنَ التَّخَلُّقِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الجَمِيلَةِ والأَخْلاقِ الحَمِيدَةِ،واتْرُكُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهلُ الجَاهِلِيَّةِ مِنَ الصِّفَاتِ والأَخْلاقِ الذَّمِيمَةِ،فإِنَّ الفَلاَحَ فِي فِعْلِ ما أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُه بِه،وَتَرْكِ مَا نَهَيا عَنْهُ.[٣٧]

قَالَ الْغَزَالِيُّ:أَمَّا وُجُوبُ التَّوْبَةِ عَلَى الْفَوْرِ فَلَا يُسْتَرَابُ فِيهِ إِذْ مُعْرِفَةُ كَوْنِ الْمَعَاصِي مُهْلِكَاتٍ مِنْ نَفْسِ الْإِيمَانِ،وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْفَوْرِ .[٣٨]

وفي الموسوعة الفقهية :"التَّوْبَةُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَاجِبَةٌ شَرْعًا عَلَى الْفَوْرِ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ؛لِأَنَّهَا مِنْ أُصُولِ الإِسْلاَمِ الْمُهِمَّةِ وَقَوَاعِدِ الدِّينِ،وَأَوَّلِ مَنَازِلِ السَّالِكِينَ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[النور:٣١]"[٣٩] .

---

[٣٤] – أدب الدنيا والدين (ص: ٩٨)

[٣٥] – رسائل ابن نجيم (رسالة في بيان الكبائر والصغائر من الذنوب) ص ٢٦٢ ،والقوانين الفقهية ص ٤١٦ نشر دار الكتاب العربي .

[٣٦] – روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/ ٢٤٩)

[٣٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧٠٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٨] – إحياء علوم الدين (٤/ ٧) وفصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٤/ ٢٩٠،بترقيم الشاملة آليا)

الإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ:

الإِصْرَارُ هُوَ الثَّبَاتُ عَلَى الأَمْرِ وَلُزُومُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَل فِي الآْثَامِ .

قَال ابْنُ عَابِدِينَ:وَفِي شَرْحِ الْمَنَارِ لِابْنِ نُجَيْمٍ عَنْ التَّقْرِيرِ لِلْأَكْمَلِ أَنَّ حَدَّ الْإِصْرَارِ أَنْ تَتَكَرَّرَ مِنْهُ تَكَرُّرًا يُشْعِرُ بِقِلَّةِ الْمُبَالَاةِ بِدِينِهِ إشْعَارَ ارْتِكَابِ الْكَبِيرَةِ بِذَلِكَ اهـ[٤٠] .

وَقَال الْجُرْجَانِيُّ:هُوَ الإِقَامَةُ عَلَى الذَّنْبِ وَالْعَزْمُ عَلَى فِعْلِ مِثْلِهِ .[٤١]

وقِيلَ:تَوْبَةُ مِثْلِ هَذَا بِالْتِزَامِ أَخَفِّ الْمَفْسَدَتَيْنِ،مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الذَّنْبِ الْمُعَيَّنِ أَوِ الِانْتِقَالِ عَنْهُ،فَإِنْ تَسَاوَتْ مَفْسَدَةُ الْإِقَامَةِ عَلَى الذَّنْبِ وَمَفْسَدَةُ الِانْتِقَالِ عَنْهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَهَذَا يُؤْمَرُ مِنَ التَّوْبَةِ بِالْمَقْدُورِ لَهُ مِنْهَا،وَهُوَ النَّدَمُ،وَالْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَى تَرْكِ الْمُعَاوَدَةِ،وَأَمَّا الْإِقْلَاعُ فَقَدْ تَعَذَّرَ فِي حَقِّهِ إلَّا بِالْتِزَامِ مَفْسَدَةٍ أُخْرَى مِثْلِ مَفْسَدَتِهِ.[٤٢]

وَقَال بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:الإِصْرَارُ هُوَ أَنْ يَنْوِيَ أَنْ لاَ يَتُوبَ،فَإِنْ نَوَى التَّوْبَةَ خَرَجَ عَنِ الإِصْرَارِ[٤٣] .

وَقَال الْفُقَهَاءُ:الصَّغِيرَةُ تَكْبُرُ بِأَسْبَابٍ مِنْهَا:الإِصْرَارُ وَالْمُوَاظَبَةُ .

وَلِذَلِكَ قِيل:لاَ صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ وَلاَ كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ .[٤٤]

فَكَبِيرَةٌ وَاحِدَةٌ تَنْصَرِمُ وَلاَ يَتْبَعُهَا مِثْلُهَا لَوْ تُصُوِّرَ ذَلِكَ كَانَ الْعَفْوُ عَنْهَا أَرْجَى مِنْ صَغِيرَةٍ يُوَاظِبُ الْعَبْدُ عَلَيْهَا،وَمِثَال ذَلِكَ قَطَرَاتٌ مِنَ الْمَاءِ تَقَعُ عَلَى الْحَجَرِ عَلَى تَوَالٍ فَتُؤَثِّرُ فِيهِ

---

[٣٩] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٤/ ١٢٥) والكليات لأبي البقاء ٢ / ٩٦ ،وتفسير الألوسي ٢٨ / ١٥٩ ،والفواكه الدواني ١ / ٨٩ ،ونهاية المحتاج ٢ / ٤٢٤ ،والروضة ١١ / ٢٤٩ ،وكشاف القناع ٢ / ٨١ ،وبلغة السالك ٤ / ٧٣٨ .

[٤٠] – الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٢/ ٤٥٧)

[٤١] – نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٩/ ٣٨٩٧) والتعريفات (ص: ٢٨) وكشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ٢١٢)

[٤٢] – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٢٩٨)

[٤٣] – تفسير القرطبي ٤ / ٢١١ .

[٤٤] – القوانين الفقهية ص ٤١٦ ،والزواجر ١ / ٧٩ ،وإحياء علوم الدين ٤ / ٣٢ ،ومختصر منهاج القاصدين ص ٢٥٧ .

وَذَلِكَ الْقَدْرُ لَوْ صُبَّ عَلَيْهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً لَمْ يُؤَثِّرْ ذَلِكَ،فَكَذَلِكَ الْقَلِيل مِنَ السَّيِّئَاتِ إِذَا دَامَ عُظِمَ تَأْثِيرُهُ فِي إِظْلاَمِ الْقَلْبِ .[٤٥]

وَقَدْ قِيلَ:إِنَّ الْإِصْرَارَ عَلَى الصَّغِيرَةِ حُكْمُهُ حُكْمُ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ،وَلَيْسَ عَلَى هَذَا دَلِيلٌ يَصْلُحُ لِلتَّمَسُّكِ بِهِ،وَإِنَّمَا هِيَ مَقَالَةٌ لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ فَإِنَّهُ قَالَ لَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ.وَقَدْ رَوَى بَعْضُ مَنْ لَا يَعْرِفُ عِلْمَ الرِّوَايَةِ هَذَا اللَّفْظَ وَجَعَلَهُ حَدِيثًا وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ،بَلِ الْحَقُّ أَنَّ الْإِصْرَارَ حُكْمُهُ حُكْمُ مَا أَصَرَّ عَلَيْهِ فَالْإِصْرَارُ عَلَى الصَّغِيرَةِ صَغِيرَةٌ وَالْإِصْرَارُ عَلَى الْكَبِيرَةِ كَبِيرَةٌ.[٤٦]

وقَال الْقَرَافِيُّ:الصَّغِيرَةُ لاَ تَقْدَحُ فِي الْعَدَالَةِ وَلاَ تُوجِبُ فُسُوقًا،إِلاَّ أَنْ يُصِرَّ عَلَيْهَا فَتَكُونُ كَبِيرَةً ...فَإِنَّهُ لاَ صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ،وَلاَ كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ كَمَا قَال السَّلَفُ ...وَيَعْنُونَ بِالاِسْتِغْفَارِ التَّوْبَةَ بِشُرُوطِهَا،لاَ طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ مَعَ بَقَاءِ الْعَزْمِ،فَإِنَّ ذَلِكَ لاَ يُزِيل كُبْرَ الْكَبِيرَةِ أَلْبَتَّةَ[٤٧] .

وَقَدْ أَوْرَدَ الزَّرْكَشِيُّ فِي عِدَادِ الْكَبَائِرِ إِدْمَانَ الصَّغِيرَةِ[٤٨] .

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ الْقُضَاعِيُّ فِي كِتَابِ " تَحْرِيرِ الْمَقَالِ فِي مُوَازَنَةِ الْأَعْمَالِ ":إِنَّ الْإِصْرَارَ حُكْمُهُ حُكْمُ مَا أُصِرَّ بِهِ عَلَيْهِ،فَالْإِصْرَارُ عَلَى الصَّغِيرَةِ صَغِيرَةٌ.[٤٩]

وَاعْتِبَارُ الإِصْرَارِ عَلَى الصَّغِيرَةِ كَبِيرَةً هُوَ مِنْ بَابِ الإِلْحَاقِ كَمَا قَال الرَّمْلِيُّ،فَهُوَ لاَ يُصَيِّرُ الصَّغِيرَةَ كَبِيرَةً حَقِيقَةً،وَإِنَّمَا يُلْحِقُهَا بِهَا فِي الْحُكْمِ،وَبِعِبَارَةِ بَعْضِ الْحَنَفِيَّةِ مِنْ شُرَّاحِ الْمَنَارِ:الإِصْرَارُ عَلَى الصَّغِيرَةِ هُوَ كَبِيرَةٌ لِغَيْرِهَا،أَمَّا الْكَبِيرَةُ بِالضَّابِطِ الأَصْلِيِّ فَهِيَ كَبِيرَةٌ بِنَفْسِهَا[٥٠] .

---

[٤٥] – إحياء علوم الدين (٤/ ٣٢) ونضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٩/ ٣٩٠٢)

[٤٦] – إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (١/ ١٤٦)

[٤٧] – الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (٤/ ٦٧)

[٤٨] – البحر المحيط في أصول الفقه (٦/ ١٥٥)

[٤٩] – البحر المحيط في أصول الفقه (٦/ ١٥٥)

[٥٠] – نهاية المحتاج ٨ / ٢٧٩ ،وشرح المنار وحواشيه ٢ / ٦٣٦ .

جَاءَ فِي حَوَاشِي شَرْحِ الْمَنَارِ أَنَّ الإِصْرَارَ تَكْرَارُ الْفِعْلِ تَكَرُّرًا يُشْعِرُ بِقِلَّةِ الْمُبَالاَةِ بِأَمْرِ الدِّينِ،وَقَال أَمِيرُ بَادْشَاهْ:الإِصْرَارُ أَنْ تَتَكَرَّرَ مِنْهُ الصَّغِيرَةُ تَكْرَارًا يُشْعِرُ بِقِلَّةِ مُبَالاَتِهِ بِأَمْرِ دِينِهِ إِشْعَارَ ارْتِكَابِ الْكَبِيرَةِ بِذَلِكَ.[٥١]

وَأَمَّا حَقِيقَةُ التَّكْرَارِ الْمُشْتَرَطِ فِي تَحَقُّقِ الإِصْرَارِ فَيُعْرَفُ مِنْ تَقْسِيمِ الزَّرْكَشِيِّ الإِصْرَارَ إِلَى قِسْمَيْنِ :

(أَحَدِهِمَا) حُكْمِيٌّ،وَهُوَ الْعَزْمُ عَلَى فِعْلِ الصَّغِيرَةِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْهَا،فَهَذَا حُكْمُهُ حُكْمُ مَنْ كَرَّرَهَا فِعْلاً،بِخِلاَفِ التَّائِبِ مِنْهَا،فَلَوْ ذَهِلَ عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْزِمْ عَلَى شَيْءٍ فَهَذَا هُوَ الَّذِي تُكَفِّرُهُ الأَعْمَال الصَّالِحَةُ .

(وَالثَّانِي) الإِصْرَارُ بِالْفِعْلِ،وَعَبَّرَ عَنْهُ بَعْضُهُمْ بِالْمُدَاوَمَةِ أَوِ الإِدْمَانِ،وَعَنْ بَعْضِ الشَّافِعِيَّةِ قَال:لاَ أَجْعَلُ الْمُقِيمَ عَلَى الصَّغِيرَةِ الْمَعْفُوِّ عَنْهَا مُرْتَكِبًا لِلْكَبِيرَةِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مُقِيمًا عَلَى الْمَعْصِيَةِ الْمُخَالِفَةِ أَمْرَ اللَّهِ دَائِمًا،وَنَحْوُهُ فِي الْمُغْنِي لاِبْنِ قُدَامَةَ [٥٢].

التَّصَدُّقُ عَقِبَ الْمَعْصِيَةِ:

قَال الشَّافِعِيَّةُ:يُنْدَبُ التَّصَدُّقُ عَقِبَ كُل مَعْصِيَةٍ ،[٥٣] قَالَ فِي الْمَجْمُوعِ:وَمَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ بِلَا عُذْرٍ يُنْدَبُ لَهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِدِينَارٍ أَوْ نِصْفِهِ،وَعَمَّمَهُ بَعْضُهُمْ فِي إِتْيَانِ كُلِّ مَعْصِيَةٍ.[٥٤]

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ،وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا،وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[٥٥]

---

[٥١] – حواشي شرح المنار نقلاً عن قمر الأقمار ٢ / ٦٣٦ ،وتيسير التحرير لأمير بادشاه ٣ / ٤٤ ،وتقرير التحبير لابن أمير حاج ٢ / ٢٤٢ .

[٥٢] – البحر المحيط في أصول الفقه (٦/ ١٥٠) والمغني لابن قدامة ١٠ / ٢٣٥ وذكر أن القاضي أبا يعلى ضبطه بالمداومة .

[٥٣] – أسنى المطالب في شرح روض الطالب (١/ ٤٠٨) والمنهاج القويم شرح المقدمة الحضرمية (ص: ٢٤١) وتحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي (٧/ ١٨٢) وحاشية الجمل على شرح المنهج = فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب (٤/ ١١٣) وحاشيتا قليوبي وعميرة (٣/ ٢٠٦) ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٤/ ١٩٨) ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (٦/ ١٧٦)

[٥٤] – حاشية الجمل على شرح المنهج = فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب (١/ ٢٤١) وحاشيتا قليوبي وعميرة (١/ ١١٥)

[٥٥] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٥٥)(١٩٨٧) صحيح لغيره

(وَأَتْبِعِ):أَمْرٌ مِنْ بَابِ الْأَفْعَالِ:هُوَ مُتَعَدٍّ إِلَى مَفْعُولَيْنِ (السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ) أَيِ:التَّوْبَةَ وَالطَّاعَةَ مُطْلَقًا،أَوْ بِأَنْ تُبَاشِرَ حَسَنَاتٍ تُضَادُّ آثَارُهَا تِلْكَ السَّيِّئَاتِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:فَسَمَاعُ الْمَلَاهِي يُكَفَّرُ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ وَبِمَجَالِسِ الذِّكْرِ وَالْوَعْظِ عَنِ الْمَنَاهِي،وَشُرْبُ الْخَمْرِ يُكَفَّرُ بِالصِّدْقِ بِكُلِّ شَرَابٍ حَلَالٍ،وَعَلَى هَذَا فَقِسْ لِأَنَّ الْمَرَضَ يُعَالَجُ بِضِدِّهِ،وَالْمُتَضَادَّاتُ هِيَ الْمُنَاسَبَاتُ،فَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَمْحُوَ كُلَّ سَيِّئَةٍ بِحَسَنَةٍ مِنْ جِنْسِهَا لَنْ تُضَادَّهَا،فَالْبَيَاضُ يُزَالُ بِالسَّوَادِ لَا بِغَيْرِهِ،وَحُبُّ الدُّنْيَا لِأَنَّ أَثَرَ السُّرُورِ بِهَا فِي الْقَلْبِ،فَلَا جَرَمَ كَفَّارَتُهُ كُلُّ أَذًى يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ اهـ.

وَلَا خَفَاءَ أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ حُسْنُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ حُبِّ الدُّنْيَا،وَمَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمُشَاكَلَةِ لِأَنَّ الْهَمَّ وَالْغَمَّ لَيْسَا مِنَ الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ الْمُرَادُ بِهَا فِي الْحَدِيثِ،عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنْ قَوْلِهِ:أَتْبِعِ،فَالصَّوَابُ أَنَّ مُقَابَلَةَ حُبِّ الدُّنْيَا بِضِدِّهَا،وَهُوَ بُغْضُهَا بِأَنْ يَتَصَدَّقَ وَلَوْ بِبَعْضِهَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ غَيْرُ لَازِمَةٍ فِي مَحْوِ السَّيِّئَاتِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود:١١٤] وَقَدْ وَرَدَتِ الْآيَةُ فِيمَنْ قَبَّلَ امْرَأَةً،ثُمَّ صَلَّى مَعَهُ - ﷺ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(تَمْحُهَا) أَيْ:تَدْفَعُ الْحَسَنَةُ السَّيِّئَةَ وَتَرْفَعُهَا وَالْإِسْنَادُ مَجَازِيٌّ،وَالْمُرَادُ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا آثَارَهَا مِنَ الْقَلْبِ أَوْ مِنْ دِيوَانِ الْحَفَظَةِ،هَذَا إِذَا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى،فَإِنْ تَعَلَّقَتْ بِالْعَبْدِ فَتُدْفَعُ الْحَسَنَةُ إِلَى خَصْمِهِ عِوَضًا عَنِ الْمَظْلِمَةِ أَوْ يُرْضِيهِ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ،حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ رُئِيَ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهُ:مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ:غَفَرَ لِي وَأَحْسَنَ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّهُ حَاسَبَنِي حَتَّى طَالَبَنِي بِيَوْمٍ كُنْتُ صَائِمًا،فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الْإِفْطَارِ أَخَذْتُ حِنْطَةً مِنْ حَانُوتِ صَدِيقٍ لِي فَكَسَرْتُهَا فَذَكَرْتُ أَنَّهَا لَيْسَتْ لِي،فَأَلْقَيْتُهَا عَلَى حِنْطَتِهِ،فَأَخَذَ مِنْ حَسَنَاتِي بِمِقْدَارِ أَرْشِ كَسْرِهَا.قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ:صَغَائِرُ الذُّنُوبِ تَقَعُ مُكَفَّرَةً بِالْحَسَنَاتِ،وَكَذَا مَا خُفِيَ مِنَ الْكَبَائِرِ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء:٣١] وَالْحَدِيثِ،أَمَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَتَحَقَّقَ عِنْدَ الْحَاكِمِ،فَلَا يَسْقُطُ حَدُّهَا وَلَا بِالتَّوْبَةِ[٥٦].

---

[٥٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٧٨)

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ:يُسْتَحَبُّ لَمِنْ وَطِئَ زَوْجَتَهُ فِي الْحَيْضِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِدِينَارٍ إِنْ كَانَ الْوَطْءُ فِي أَوَّل الْحَيْضِ وَبِنِصْفِ دِينَارٍ إِنْ كَانَ الْوَطْءُ فِي آخِرِهِ،أَوْ وَسَطِهِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ يَجِبُ التَّصَدُّقُ بِدِينَارٍ أَوْ نِصْفِ دِينَارٍ كَفَّارَةً لَمِنْ وَطِئَ فِي الْحَيْضِ عَلَى اخْتِلاَفِ الرِّوَايَةِ عِنْدَهُمْ .[٥٧]

سَتْرُ الْمَعْصِيَةِ :

إِذَا تَعَلَّقَ بِالْمَعْصِيَةِ حَدُّ اللَّهِ كَحَدِّ الزِّنَا وَالشُّرْبِ فَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ ذَلِكَ يُنْدَبُ لِلْمُسْلِمِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ أَنْ يَسْتُرَ عَلَى نَفْسِهِ لِمَا وَرَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَمَ مَاعِزًا قَالَ:«اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَةَ،الَّتِي نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهَا يَعْنِي الزِّنَا،فَمَنْ أَلَمَّ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَعُودُ»[٥٨]

وعَنْ يَعْلَى،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ بِلَا إِزَارٍ،فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ»[٥٩]

فَإِنْ أَظْهَرَهُ،فَقَدْ صَرَّحَ الْحَنَفِيَّةُ بِأَنَّهُ لَمْ يَأْثَمْ،لِأَنَّ مَاعِزًا وَالْغَامِدِيَّةَ اعْتَرَفَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالزِّنَا فَرَجَمَهُمَا وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمَا،فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،طَهِّرْنِي،فَقَالَ:«وَيْحَكَ،ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ»،قَالَ:فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ،ثُمَّ جَاءَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،طَهِّرْنِي،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«وَيْحَكَ،ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ»،قَالَ:فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ،ثُمَّ جَاءَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،طَهِّرْنِي،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ،قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ:«فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟» فَقَالَ:مِنَ الزِّنَى،فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَبِهِ جُنُونٌ؟» فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ،فَقَالَ:«أَشَرِبَ خَمْرًا؟» فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ،فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ،قَالَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَزَنَيْتَ؟» فَقَالَ:نَعَمْ،فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ،فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ،قَائِلٌ يَقُولُ:لَقَدْ

---

[٥٧] – الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (١/ ٢٩٨) والوسيط في المذهب (٥/ ٤٤٠) والمجموع شرح المهذب (٤/ ٥٩١) والمغني لابن قدامة (١/ ٢٤٣)

[٥٨] – معجم ابن المقرئ (ص: ٢٥٤)(٨٣١) صحيح لغيره

[٥٩] – سنن أبي داود (٤/ ٤٠)(٤٠١٢) صحيح

هَلَكَ،لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ،وَقَائِلٌ يَقُولُ:مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ،أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ،ثُمَّ قَالَ:اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ،قَالَ:فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً،ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ،فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ،فَقَالَ:«اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ»،قَالَ:فَقَالُوا:غَفَرَ اللهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ»،قَالَ:ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنَ الْأَزْدِ،فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللهِ،طَهِّرْنِي،فَقَالَ:«وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ» فَقَالَتْ:أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ،قَالَ:«وَمَا ذَاكِ؟» قَالَتْ:إِنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزِّنَى،فَقَالَ:«آنْتِ؟» قَالَتْ:نَعَمْ،فَقَالَ لَهَا:«حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ»،قَالَ:فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ،قَالَ:فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:«قَدْ وَضَعَتِ الْغَامِدِيَّةُ»،فَقَالَ:«إِذًا لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ»،فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ،فَقَالَ:إِلَيَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ،قَالَ:فَرَجَمَهَا"[٦٠]

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:إِظْهَارُ الْمَعْصِيَةِ لِيُحَدَّ أَوْ يُعَزَّرَ خِلاَفُ الْمُسْتَحَبِّ .

وَأَمَّا التَّحَدُّثُ بِالْمَعْصِيَةِ تَفَكُّهًا فَحَرَامٌ قَطْعًا لِلأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ فِيهِ .[٦١]

قُلْت:وَالظَّاهِرُ أَنْ يَنْبَغِيَ هُنَا لِلْوُجُوبِ وَأَنَّ الْكَرَاهَةَ تَحْرِيمِيَّةٌ لِأَنَّ إظْهَارَ الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ لِحَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ،وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ

---

[٦٠] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٢٢)٢٢ – (١٦٩٥)

[ش(ويحك) قال في النهاية ويح كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها(فاستنكهه) أي شم رائحة فمه طلب نكهته بشم فمه والنكهة رائحة الفم(غامد) بطن من جهينة(إنها حبلى من الزنى) أرات إني حبلى من الزنى فعبرت عن نفسها بالغيبة(فكفلها رجل من الأنصار) أي قام بمؤنتها ومصالحها وليس هو من الكفالة التي هي بمعنى الضمان لأن هذا لا يجوز في الحدود التي لله تعالى(إلى رضاعه) إنما قاله بعد الفطام وأراد بالرضاعة كفايته وتربيته وسماه رضاعا مجازا]

[٦١] – أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٤/ ١٣١) وإعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين (٤/ ٣٣٨) وتحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي (١٠/ ٢٤٤)

عَمَلًا،ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْه،فَيَقُولَ:يَا فُلاَنُ،عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا،وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ،وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّه عَنْهُ "[٦٢] وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.[٦٣]

وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ أَنَّ الإِنْسَانَ مَأْمُورٌ بِالسَّتْرِ عَلَى نَفْسِه وَعَلَى غَيْرِه،قَال ﷺ:اجْتَنِبُوا هَذِه الْقَاذُورَةَ فَمَنْ أَلَمَّ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّه قَال ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي التَّمْهِيدِ:فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السَّتْرَ وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِه إِذَا أَتَى فَاحِشَةً وَوَاجِبٌ ذَلِكَ أَيْضًا فِي غَيْرِه .[٦٤]

الْمُجَاهَرَةُ بِالْمَعَاصِي:

الْمُجَاهَرَةُ بِالْمَعَاصِي مَنْهِيٌّ عَنْهَا،قَال النَّبِيُّ ﷺ::" كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ،وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا،ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْه،فَيَقُولَ:يَا فُلاَنُ،عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا،وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ،وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّه عَنْهُ "[٦٥]

سَفَرُ الْمَعْصِيَةِ

يَشْتَرِطُ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ فِي السَّفَرِ الَّذِي تَتَغَيَّرُ بِهِ الأَحْكَامُ أَنْ لاَ يَكُونَ الْمُسَافِرُ عَاصِيًا بِسَفَرِه .[٦٦]

---

[٦٢] – صحيح البخاري (٨/ ٢٠)(٦٠٦٩) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩١)٥٢ – (٢٩٩٠)

[ش (معافى) يعفو الله تعالى عن زلته بفضله ورحمته.(المجاهرون) المعلنون بالمعاصي والفسوق.(المجاهرة) وفي رواية (المجانة) وهي الاستهتار بالأمور وعدم المبالاة بالقول أو الفعل.(البارحة) أقرب ليلة مضت من وقت القول]

[٦٣] – الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٢/ ٧٧) وبريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية (٤/ ٣٩٩) وبريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (٣/ ١٨٠)

[٦٤] – البيان والتحصيل (١٠/ ٢٣) والتاج والإكليل لمختصر خليل (٨/ ١٨٦) والشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي (٤/ ٣٣١) ومواهب الجليل في شرح مختصر خليل (٦/ ١٦٢) والغرر البهية في شرح البهجة الوردية (٥/ ٥٥)

[٦٥] – صحيح البخاري (٨/ ٢٠)(٦٠٦٩) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩١)٥٢ – (٢٩٩٠)

[ش (معافى) يعفو الله تعالى عن زلته بفضله ورحمته.(المجاهرون) المعلنون بالمعاصي والفسوق.(المجاهرة) وفي رواية (المجانة) وهي الاستهتار بالأمور وعدم المبالاة بالقول أو الفعل.(البارحة) أقرب ليلة مضت من وقت القول]

[٦٦] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩٩٩) ومنار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢/ ٣١١) والبناية شرح الهداية (٣/ ٣٥) والجوهرة النيرة على مختصر القدوري (١/ ٨٨) والعناية شرح الهداية (٢/ ٤٦) والمحيط البرهاني في الفقه النعماني (٢/ ٢٤) والنتف في الفتاوى للسغدي (١/ ٧٥) وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١/ ٩٣) وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي (١/ ٢١٦) وبداية المجتهد ونهاية المقتصد (١/ ١٧٩) وحاشية

قال الشافعي رحمه الله تعالى:" وَلَيْسَ لِأَحَدٍ سَافَرَ فِي مَعْصِيَةٍ أَنْ يَقْصُرَ وَلَا يَمْسَحُ مَسْحَ الْمُسَافِرِ فَإِنْ فَعَلَ أَعَادَ ولا تخفيف على من سفره في معصية "

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ:وَهَذَا كَمَا قَالَ:إذَا سَافَرَ منشأ لسَفَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَقَطْعِ الطَّرِيقِ وَإِخَافَةِ السَّبِيلِ وَالسَّعْيِ بِالْفَسَادِ أَوْ خَرَجَ بَاغِيًا عَلَى مُسْلِمٍ أَوْ مُعَاهَدٍ أَوْ أَبَقًا مِنْ شِدَّةٍ أَوْ هَارِبًا مِنْ حَقٍّ لَزِمَهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى بَذْلِهِ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَرَخَّصَ بِشَيْءٍ مِنْ رُخَصِ السَّفَرِ بِحَالٍ

قَالَ:لَا يَقْصُرُ مِنْ صَلَاتِهِ وَلَا يُفْطِرُ فِي صِيَامِهِ وَلَا يَمْسَحُ ثَلَاثًا عَلَى خُفِّهِ وَلَا يَتَنَفَّلُ عَلَى الرَّاحِلَةِ حَيْثُ مَا تَوَجَّهَتْ وَلَا يَأْكُلُ الْمَيْتَةَ إنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ،وَقَالَ أبو حنيفة وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالْمُزَنِيُّ:الْعَاصِي فِي سَفَرِهِ كَالطَّائِعِ فِي اسْتِبَاحَةِ الرُّخَصِ تَعَلُّقًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ} [النساء:١٠١] فَكَانَ عَلَى عُمُومِهِ فِي كُلِّ هَارِبٍ مِنْ طَائِعٍ أَوْ عَاصٍ،وَلِعُمُومِ قَوْلِهِ - ﷺ -:" إنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنِ الْمُسَافِرِ شَطْرَ الصَّلَاةِ " قالوا:ولأنه كُلَّ صَلَاةٍ جَازَ الِاقْتِصَارُ فِيهَا عَلَى رَكْعَتَيْنِ اسْتَوَى فِي فِعْلِهَا الطَّائِعُ وَالْعَاصِي كَالْجُمُعَةِ وَالصُّبْحِ

قَالُوا:وَلِأَنَّ لِلْمُقِيمِ رُخْصَةً وَلِلْمُسَافِرِ رُخْصَةً فَلَوْ مَنَعَت الْمَعْصِيَةُ مِنْ رُخْصَةِ الْمُسَافِرِ لَمَنَعَتْ مِنْ رُخْصَةِ الْمُقِيمِ،فَلَمَّا جَازَ لِلْمُقِيمِ أَنْ يَتَرَخَّصَ أَيْضًا وَإِنْ كَانَ عَاصِيًا جَازَ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يَتَرَخَّصَ أَيْضًا وَإِنْ كَانَ عَاصِيًا،وَقَالُوا:وَلِأَنَّهُ لَوْ أَنْشَأَ سَفَرًا فِي طَاعَةٍ مِنْ حَجٍّ أَوْ جِهَادٍ ثُمَّ جَعَلَهُ مَعْصِيَةً لِسَعْيِهِ بِالْفَسَادِ جَازَ أَنْ يَسْتَبِيحَ رُخَصَ السَّفَرِ،كَذَلِكَ إذَا أَنْشَأَ سَفَرَهُ عَاصِيًا

الصاوي على الشرح الصغير = بلغة السالك لأقرب المسالك (١/ ٧١٨) ومنح الجليل شرح مختصر خليل (١/ ١٣٧) والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (١/ ٧٥) والبيان في مذهب الإمام الشافعي (١/ ٣٢٢) والحاوي الكبير (٢/ ٣٥٨) والمجموع شرح المهذب (٤/ ٣٤٤) وحاشية البجيرمي على الخطيب = تحفة الحبيب على شرح الخطيب (١/ ٢٦٨) وروضة الطالبين وعمدة المفتين (١/ ٣٨٨) ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (١/ ٢٠٥) والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٢/ ٣١٦) والمغني لابن قدامة (٢/ ١٩٣)

وَتَحْرِيرُهُ قِيَاسًا أَنْ يَقُولَ:لِأَنَّهُ مُسَافِرٌ فَجَازَ أَنْ يَسْتَبِيحَ الرُّخَصَ مَعَ الْمَعْصِيَةِ كَمَا لَوْ طَرَأَت الْمَعْصِيَةُ فِي سَفَرِهِ قَالُوا:وَلِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ لِلْعَاصِي أَنْ يَتَيَمَّمَ فِي سَفَرِهِ إِجْمَاعًا وَلَمْ تَمْنَعْهُ الْمَعْصِيَةُ مِنَ التَّيَمُّمِ كَذَلِكَ لَا تَمْنَعُهُ مِنْ سَائِرِ الرُّخَصِ كالقصر وغيره قَالُوا:وَلِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ لَوْ مَنَعَتْهُ مِنْ أَكْلِ الْمَيْتَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ فِي سَفَرِهِ لَاسْتَبَاحَ بِالْمَعْصِيَةِ قَتْلَ نَفْسِهِ لِأَنَّهُ إِذَا امْتَنَعَ مِنْ أَكْلِهَا أَفْضَى بِهِ الْجُوعُ إِلَى التَّلَفِ وَقَتْلُ النَّفْسِ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء:٢٩]،ولأن معصيته لَمَّا لَمْ تُبِحْ لَهُ قَتْلَ غَيْرِهِ لَمْ تُبِحْ لَهُ قَتْلَ نَفْسِهِ وَالدَّلَالَةُ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ} [المائدة:٣] فَأَطْلَقَ تَحْرِيمَ الْمَيْتَةِ عُمُومًا ثُمَّ اسْتَثْنَى مِنْ جُمْلَةِ التَّحْرِيمِ مُضْطَرًّا لَيْسَ بِعَاصٍ فَقَالَ تَعَالَى:{فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ} [المائدة:٣] أَيْ غَيْرَ مُرْتَكِبٍ لِمَعْصِيَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْعَاصِي الْمُضْطَرُّ كَالطَّائِعِ الَّذِي لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ فِي تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ عَلَيْهِمَا لِعُمُومِ التَّحْرِيمِ

وَقَالَ سُبْحَانَهُ:{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:١٧٣] .فَحَرَّمَ الْمَيْتَةَ تَحْرِيمًا عَامًّا،وَاسْتَثْنَى مِنْهُ مُضْطَرًّا غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ،قَالَ الشَّافِعِيُّ:غَيْرُ بَاغٍ عَلَى الْإِمَامِ وَلَا عَادٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ قِيلَ إِنَّمَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ} [المائدة:٣] أَيْ:غَيْرَ مُرْتَكِبٍ لِتَنَاوُلِ مَا زَادَ عَلَى سَدِّ رَمَقِهِ،وَبِقَوْلِهِ غَيْرَ بَاغٍ أَيْ غَيْرَ طَالِبٍ لِأَكْلِ مَا لَا حَاجَةَ لَهُ إِلَيْهِ وَبِقَوْلِهِ،وَلَا عَادٍ،أَيْ:لَا مُتَعَمِّدٍ فِيهَا بَعْدَ سَدِّ رَمَقِهِ

قِيلَ عَنْ هَذَا جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا:اسْتِعْمَالُهُ فِي الْأَمْرَيْنِ وَحَمْلٌ عَلَى الْعُمُومِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ

وَالْجَوَابُ الثَّانِي:وَهُوَ الْمَرْضِيُّ أَنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ لَا يَصِحُّ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَاحَ الْمَيْتَةَ لِمُضْطَرٍّ غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَمْ يَجُزْ حَمْلُهُ عَلَى مَنْ زَادَ عَلَى سَدِّ رَمَقِهِ،لِأَنَّهُ غَيْرُ مُضْطَرٍّ وَالْإِبَاحَةُ لِمُضْطَرٍّ عَلَى حَقٍّ،فَعُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا عَدَمُ الْمَعْصِيَةِ

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا:هُوَ أَنَّ رُخَصَ السَّفَرِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالسَّفَرِ وَمَنُوطَةٌ بِهِ فَلَمَّا كَانَ سَفَرُ الْمَعْصِيَةِ مَمْنُوعًا مِنْهُ لِأَجْلِ الْمَعْصِيَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنَ الرُّخَصِ مَمْنُوعًا مِنْهُ لِأَجْلِ المعصية

فإن قيل:هذا باطل بما جَرَحَ نَفْسَهُ فَعَجَّزَهُ عَنِ الْقِيَامِ،يَجُوزُ لَهُ أن يصلي قاعداً ووإن كَانَ الْجُرْحُ مَعْصِيَةً،وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ إِذَا ضَرَبَتْ بَطْنَهَا فَأَلْقَتْ مَا فيه فَإِنَّهُ تَسْقُطُ عَنْهَا الصَّلَاةُ فِي مُدَّةِ النِّفَاسِ وَإِنْ كَانَ الضَّرْبُ مَعْصِيَةً،قُلْنَا جَوَازُ الْقُعُودِ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَجْزِ عَنِ الْقِيَامِ وَالْعَجْزُ فِي نَفْسِهِ غَيْرُ مَعْصِيَةٍ وَإِنَّمَا هُوَ مُتَوَلِّدٌ عَنِ الضَّرْبِ الَّذِي هُوَ معصية،وكذلك الصلاة إنما تقسط بِوُجُودِ النِّفَاسِ وَلَيْسَ النِّفَاسُ مَعْصِيَةً وَإِنَّمَا هُوَ مُتَوَلِّدٌ عَنِ الْإِسْقَاطِ الْحَادِثِ عَنْ سَبَبٍ هُوَ مَعْصِيَةٌ فَلِذَلِكَ مَا جَوَّزْنَاهُ وَسَبَبُ هَذِهِ الرُّخَصِ هُوَ السَّفَرُ لَا غَيْرَ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَعْصِيَةٌ لِأَنَّ السَّفَرَ حَرَكَاتُهُ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا مُعَاقَبٌ فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَجْلِبَ التَّخْفِيفَ وَالرُّخَصَ،وَلِأَنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالسَّفَرِ مِنْ رُخْصَةِ تَخْفِيفٍ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِيهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَعُونَةً لَهُمْ وَقُوَّةً عَلَى سَفَرِهِمْ،وَالْعَاصِي لَا يَسْتَحِقُّ الْمَعُونَةَ فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَسْتَبِيحَ الرُّخْصَةَ،وَلِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ سَفَرُ الْمَعْصِيَةِ مَانِعًا مِنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ لِأَجْلِ الْمَعْصِيَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَانِعًا مِنْ سَائِرِ الرُّخَصِ لِأَجْلِ الْمَعْصِيَةِ،وَتَحْرِيرُهُ قِيَاسًا أَنَّ السَّبَبَ الْمَحْظُورَ لَا يُسْقِطُ شَيْئًا مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ كَالْخَوْفِ بِالْقِتَالِ الْمَحْظُورِ لَا يُبِيحُ صَلَاةَ شِدَّةِ الْخَوْفِ،وَلِأَنَّ الرُّخَصَ إِذَا اسْتُبِيحَتْ بِشَرْطٍ وَكَانَ الشَّرْطُ مَرْدُودًا بِالشَّرْعِ صَارَ مَفْقُودًا كَالْمُطَلَّقَةِ ثَلَاثًا لَمَّا شُرِطَ فِي عَوْدِهَا إِلَى الْأَوَّلِ نِكَاحُ زَوْجٍ ثَانٍ ثُمَّ كَانَ نِكَاحُ الزَّوْجِ الثَّانِي لِوُرُودِ الشَّرْعِ بِفَسَادِهِ كَانَ وَجُودُهُ كَعَدَمِهِ فِي تَحْرِيمِهَا عَلَى الْأَوَّلِ كَذَلِكَ الْقَصْرُ لَمَّا كَانَ مَشْرُوطًا بِالسَّفَرِ وَكَانَ سَفَرُهُ لِمَعْصِيَةٍ مَرْدُودًا بِالشَّرْعِ صَارَ كَالْمَعْدُومِ وَإِذَا عُدِمَ السَّفَرُ حُرِّمَتِ الرُّخْصَةُ

فَأَمَّا تَعَلُّقُهُمْ بِالْآيَةِ وَالْخَبَرِ فَأَدِلَّتُنَا مُخَصَّصَةٌ لَهُمَا،وَأَمَّا قِيَاسُهُمْ عَلَى الْجُمُعَةِ وَالصُّبْحِ فَوَصْفُ الْعِلَّةِ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الْأَصْلِ عِنْدَنَا وَفِي الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ عِنْدَهُمْ،عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى فِي الْجُمُعَةِ وَفِي الصُّبْحِ أَنَّ الاقْتِصَارَ فِيهِمَا عَلَى رَكْعَتَيْنِ لَا يَخْتَصُّ بِسَبَبٍ مِنْ جِهَتِهِ فَلَا يَقَعُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا مِنْ طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ وَلَمَّا كَانَتْ رُخَصُ السَّفَرِ بِسَبَبٍ حَادِثٍ مِنْ جِهَتِهِ

وَهُوَ السَّفَرُ وَقَعَ الْفَرْقُ فِيهِ بَيْنَ طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ فَاسْتَبَاحَ الرُّخَصَ مَعَ الطَّاعَةِ وَمَنَعَ مِنْهَا مَعَ الْمَعْصِيَةِ وَأَمَّا جَمْعُهُمْ بَيْنَ مَعْصِيَةِ الْمُقِيمِ وَالْمُسَافِرِ فِي جَوَازِ اسْتِبَاحَةِ الرُّخَصِ فَقَدْ كَانَ أَبُو سَعِيدٍ الاصْطَخْرِيُّ يَمْنَعُ الْمُقِيمَ مِنْهَا كَمَا يَمْنَعُ الْمُسَافِرَ وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمَا فِي حَظْرِ الرُّخَصِ عَلَيْهِمَا فَعَلَى هَذَا بَطَلَ اسْتِدْلَالُهُمْ بِهِ وَذَهَبَ سَائِرُ أَصْحَابِنَا إِلَى أَنَّ الْمُقِيمَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَرَخَّصَ وَإِنْ كَانَ عَاصِيًا بِخِلَافِ الْمُسَافِرِ

وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْإِقَامَةَ نَفْسَهَا لَيْسَتْ مَعْصِيَةً لِأَنَّهَا كَفٌّ وَإِنَّمَا الْفِعْلُ الَّذِي تُوقِعُهُ فِي الْإِقَامَةِ مَعْصِيَةٌ،فَلَمَّا لَمْ تَكُنِ الْإِقَامَةُ مَعْصِيَةً لَمْ تَمْنَعِ الرُّخَصَ وَالسَّفَرُ فِي نَفْسِهِ مَعْصِيَةٌ لِأَنَّهُ فِعْلٌ وَحَرَكَةٌ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْمَعَاصِي فَكَانَتْ مَعْصِيَةً،وَإِذَا كَانَ السَّفَرُ مَعْصِيَةً لَمْ يَجُزْ أَنْ يُبِيحَ الرُّخَصَ

فَإِنْ قِيلَ:قَدْ تَكُونُ نَفْسُ الْإِقَامَةِ مَعْصِيَةً وَهُوَ أَنْ يَنْوِيَ الْإِقَامَةَ لِزِنًا أَوْ قَتْلِ إِنْسَانٍ

قِيلَ:لَا تكون الإقامة معصية وإنما المعصية هو الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ وَمَا نَوَاهُ مِنَ الزنا وَالْقَتْلِ،أَلَا تَرَاهُ يُعَاقَبُ عَلَى عَزْمِهِ،وَلَا يُعَاقَبُ عَلَى نِيَّةِ مُقَامِهِ وَالسَّفَرُ حَرَكَاتٌ هُوَ عَلَيْهَا مُعَاقَبٌ فَعُلِمَ أَنَّ السَّفَرَ مَعْصِيَةٌ وَالْإِقَامَةَ لَيْسَتْ بِمَعْصِيَةٍ

وَأَمَّا الْجَوَابُ عَمَّنْ أَحْدَثَ الْمَعْصِيَةَ فِي سَفَرِهِ وَقَدْ أَنْشَأَهُ طَائِعًا فَلَيْسَ لِلشَّافِعِيِّ فِيهِ نَصٌّ وَلِأَصْحَابِنَا فِيهِ وَجْهَانِ:أحدهما:وهو قول أبو الْقَاسِمِ الدَّارَكِيِّ وَعَزَاهُ لِأَصْحَابِنَا،لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَرَخَّصَ كَالْمُنْشِئِ لِسَفَرِهِ فِي مَعْصِيَةٍ فَعَلَى هَذَا سَقَطَ اسْتِدْلَالُهُمْ بِهِ

وَالْوَجْهُ الثَّانِي:وَهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ أَصْحَابِنَا يَجُوزُ أَنْ يَتَرَخَّصَ لِأَنَّ الَّذِي جَلَبَ لَهُ هَذِهِ الرُّخَصَ إِحْدَاثُ السَّفَرِ وَإِحْدَاثُهُ لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً وَفِي مَسْأَلَتِنَا إِحْدَاثُهُ مَعْصِيَةٌ فَافْتَرَقَا فِي اسْتِبَاحَةِ الرُّخَصِ[٦٧]

وعند الحنفية:" يَسْتَوِي فِي الْمِقْدَارِ الْمَفْرُوضِ عَلَى الْمُسَافِرِ مِنْ الصَّلَاةِ سَفَرُ الطَّاعَةِ مِنْ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ،وَطَلَبِ الْعِلْمِ،وَسَفَرُ الْمُبَاحِ كَسَفَرِ التِّجَارَةِ وَنَحْوِهِ،وَسَفَرُ الْمَعْصِيَةِ كَقَطْعِ الطَّرِيقِ،وَالْبَغْيِ وَهَذَا عِنْدَنَا.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:لَا تَثْبُتُ رُخْصَةُ الْقَصْرِ فِي سَفَرِ الْمَعْصِيَةِ.

---

[٦٧] – الحاوي الكبير (٢/ ٣٨٧)

(وَجْهُ) قَوْلِه:أَنَّ رُخْصَةَ الْقَصْرِ تَثْبُتُ تَخْفِيفًا أَوْ نَظَرًا عَلَى الْمُسَافِرِ،وَالْجَانِي لَا يَسْتَحِقُّ النَّظَرَ وَالتَّخْفِيفَ.

(وَلَنَا) أَنَّ مَا ذَكَرْنَا مِنْ الدَّلَائِلِ لَا يُوجِبُ الْفَصْلَ بَيْنَ مُسَافِرٍ وَمُسَافِرٍ فَوَجَبَ الْعَمَلُ بِعُمُومِهَا وَإِطْلَاقِهَا،وَيَسْتَوِي فِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَعْدَادِ الرَّكَعَاتِ فِي حَقِّ الْمُقِيمِ وَالْمُسَافِرِ صَلَاةُ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ،فَالْخَوْفُ لَا يُؤَثِّرُ فِي نُقْصَانِ الْعَدَدِ مُقِيمًا كَانَ الْخَائِفُ أَوْ مُسَافِرًا وَهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَإِنَّمَا يُؤَثِّرُ فِي سُقُوطِ اعْتِبَارِ بَعْضِ مَا يُنَافِي الصَّلَاةَ فِي الْأَصْلِ مِنْ الْمَشْيِ وَنَحْوِ ذَلِكَ عَلَى مَا نَذْكُرُهُ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ - إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى -.[٦٨]

أَثَرُ مُقَارَنَةِ الْمَعَاصِي لِأَسْبَابِ الرُّخَصِ:

قَال الْقَرَافِيُّ عِنْدَ الْكَلَامِ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ كَوْنِ الْمَعَاصِي أَسْبَابًا لِلرُّخَصِ وَبَيْنَ مُقَارَنَةِ الْمَعَاصِي لِأَسْبَابِ الرُّخَصِ الْمَعَاصِي لاَ تَكُونُ أَسْبَابًا لِلرُّخَصِ وَلِذَلِكَ الْعَاصِي بِسَفَرِهِ لاَ يَقْصُرُ وَلاَ يُفْطِرُ،لِأَنَّ سَبَبَ هَذَيْنِ السَّفَرُ وَهُوَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ مَعْصِيَةٌ فَلاَ يُنَاسِبُ الرُّخْصَةَ لِأَنَّ تَرْتِيبَ التَّرَخُّصِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ سَعْيٌ فِي تَكْثِيرِ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ بِالتَّوْسِعَةِ عَلَى الْمُكَلَّفِ بِسَبَبِهَا،وَأَمَّا مُقَارَنَةُ الْمَعَاصِي لِأَسْبَابِ الرُّخَصِ فَلاَ تَمْنَعُ إِجْمَاعًا،كَمَا يَجُوزُ لِأَفْسَقِ النَّاسِ وَأَعْصَاهُمُ التَّيَمُّمُ إِذَا عَدِمَ الْمَاءَ وَهُوَ رُخْصَةٌ،وَكَذَلِكَ الْفِطْرُ إِذَا أَضَرَّ بِهِ الصَّوْمُ،وَالْجُلُوسُ إِذَا أَضَرَّ بِهِ الْقِيَامُ فِي الصَّلَاةِ،وَيُقَارِضُ وَيُسَاقِي وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الرُّخَصِ،وَلاَ تَمْنَعُ الْمَعَاصِي مِنْ ذَلِكَ،لِأَنَّ أَسبَابَ هَذِهِ الأُمُورِ غَيْرُ مَعْصِيَةٍ،بَل هِيَ عَجْزُهُ عَنِ الصَّوْمِ وَنَحْوِهِ،وَالْعَجْزُ لَيْسَ مَعْصِيَةً،فَالْمَعْصِيَةُ هَاهُنَا مُقَارِنَةٌ لِلسَّبَبِ لاَ سَبَبٌ"[٦٩] .

إِعْطَاءُ الزَّكَاةِ لِابْنِ السَّبِيلِ الْمُسَافِرِ فِي مَعْصِيَةٍ

---

[٦٨] - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١/ ٩٣)

[٦٩] - الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (٢/ ٣٣) والقواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة (٢/ ٧٢٤)

ذَهَبَ الْمَالكيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ إلَى أَنَّ ابْنَ السَّبِيل لاَ يُعْطَى منَ الزَّكَاة إنْ خَرَجَ فِي مَعْصيَة كَقَطْع الطَّريق وَنَحْوه .وَأَمَّا الْحَنَفيَّةُ فَلاَ يَشْتَرطُونَ لإعْطَاء الزَّكَاة ابْنَ السَّبِيل عَدَمِ الْمَعْصيَة بسَفَره [٧٠] .

إعْطَاءُ الزَّكَاة للْغَارِم الْمُسْتَدين في مَعْصيَة:

ذَهَبَ الْمَالكيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ في الْمَذْهَب وَالْحَنَابلَةُ إلَى عَدَم إعْطَاء الزَّكَاة للْمُسْتَدين فِي مَعْصيَة كَالْخَمْر وَالْقمَار قَبْل التَّوْبَة لأَنَّ في إعْطَائه إعَانَةً لَهُ عَلَى الْمَعْصيَة .

وَأَمَّا الْحَنَفيَّةُ فَلاَ يَشْتَرطُونَ في دَفْع الزَّكَاة إلَى الْغَارم أَنْ يَكُونَ دَيْنُهُ لطَاعَة أَوْ مُبَاح .

وَتُعْطَى الزَّكَاةُ لمنْ تَابَ في الأَصَحِّ عنْدَ الشَّافعيَّة لأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا،وَمُقَابلُهُ لاَ تُعْطَى لأَنَّهُ رُبَّمَا اتَّخَذَ ذَلكَ ذَريعَةً ثُمَّ يَعُودُ .[٧١]

إجَابَةُ دَعْوَة مُقْتَرنَة بمَعَاص

ذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ إلَى أَنَّ مَنْ دُعيَ إلَى وَليمَة وَعَلمَ قَبْل حُضُورهَا بوُجُود مَعَاص فيهَا لاَ يَحْضُرُهَا لأَنَّهُ لاَ يَلْزَمُهُ حَقُّ الدَّعْوَة،لأَنَّ إجَابَتَهَا إنَّمَا تَلْزَمُ إذَا كَانَتْ عَلَى وَجْه السُّنَّة سَوَاءٌ كَانَ الْمَدْعُوُّ مُقْتَدًى به أَوْ لاَ .

وَأَمَّا مَنْ دُعيَ إلَى وَليمَة فَوَجَدَ بَعْدَ الْحُضُور ثَمَّةَ لَعبًا أَوْ غنَاءً فَلاَ بَأْسَ أَنْ يَقْعُدَ وَيَأْكُل،فَإنْ قَدَرَ عَلَى الْمَنْع يَمْنَعُهُمْ وَإنْ لَمْ يَقْدرْ يَصْبرُ وَهَذَا إذَا لَمْ يَكُنْ مُقْتَدًى به،أَمَّا إذَا كَانَ وَلَمْ يَقْدرْ عَلَى مَنْعهمْ فَإنَّهُ يَخْرُجُ وَلاَ يَقْعُدُ .[٧٢]

الْوَقْفُ عَلَى الْمَعْصيَة:

---

[٧٠] – الشرح الصغير ١ / ٦٦٣، ٦٦٤ ،وحاشية الدسوقي ١ / ٤٩٧ – ٤٩٨ ،والمجموع ٦ / ٢١٤ ،والقليوبي ٣ / ١٩٨ ،وكشاف القناع ٢ / ٢٨٧ ،وحاشية ابن عابدين ١ / ٥٢٧ .وانظر : الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٣/ ٣٢٤)

[٧١] – حاشية الدسوقي ١ / ٤٩٦، ٤٩٧ ،والشرح الصغير ١ / ٦٦٢ – ٦٦٣ ،ومغني المحتاج ٣ / ١١٠ ،وشرح المحلي على المنهاج ٣ / ١٩٧ ،والمجموع ٦ / ٢٠٨ ،وكشاف القناع ٢ / ٢٨٧ ،وحاشية ابن عابدين ٢ / ٦١ ،وأحكام القرآن للجصاص ٣ / ١٢٦ .

[٧٢] – البحر الرائق شرح كتر الدقائق ومنحة الخالق وتكملة الطوري (٨/ ٢١٤) والعناية شرح الهداية (١٠/ ١٤) وفتح القدير للكمال ابن الهمام (١٠/ ١٣)

يَشْتَرِطُ الْفُقَهَاءُ لِصِحَّةِ الْوَقْفِ كَوْنَ الْمَوْقُوفِ عَلَيْهِ جِهَةَ بِرٍّ فَلاَ يَجُوزُ الْوَقْفُ عَلَى مَعْصِيَةٍ لأَنَّ الْوَقْفَ طَاعَةٌ تُنَافِي الْمَعْصِيَةَ فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَقِفَهَا عَلَى الزُّنَاةِ أَوِ السُّرَّاقِ،أَوْ شُرَّابِ الْخَمْرِ،أَوِ الْمُرْتَدِّينَ عَنِ الإِسْلاَمِ فَيَكُونُ الْوَقْفُ فِي هَذِهِ الْجِهَاتِ بَاطِلاً لأَنَّهَا مَعَاصٍ يَجِبُ الْكَفُّ عَنْهَا فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعَانَ عَلَيْهَا .[٧٣]

الْوَصِيَّةُ لِجِهَةِ الْمَعْصِيَةِ :

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا أَوْصَى الْمُسْلِمُ لِجِهَةٍ عَامَّةٍ فَالشَّرْطُ أَنْ لاَ تَكُونَ الْجِهَةُ مَعْصِيَةً فَلاَ تَصِحُّ الْوَصِيَّةُ لِكَنِيسَةٍ وَلِحُصْرِهَا وَقَنَادِيلِهَا وَنَحْوِهِ وَلاَ لِبَيْتِ نَارٍ وَلاَ لِبِيعَةٍ وَصَوْمَعَةٍ وَلاَ دَيْرٍ وَلاَ لإِصْلاَحِهَا وَشَعْلِهَا وَخِدْمَتِهَا وَلاَ لِعِمَارَتِهَا .وَلَوْ أَوْصَى الذِّمِّيُّ بِثُلُثِ مَالِهِ لِبِيعَةٍ أَوْ لِكَنِيسَةٍ أَنْ يُنْفَقَ عَلَيْهَا فِي إِصْلاَحِهَا أَوْ أَوْصَى لِبَيْتِ النَّارِ لَمْ يَجُزْ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ،وَجَازَ فِي قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَبَعْضِ الْمَالِكِيَّةِ .[٧٤]

نَذْرُ الْمَعْصِيَةِ

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَصِحُّ نَذْرُ الْمَعْصِيَةِ كَالْقَتْلِ وَالزِّنَا وَشُرْبِ الْخَمْرِ لِحَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:كَانَتْ ثَقِيفُ حُلَفَاءَ لِبَنِي عُقَيْلٍ،فَأَسَرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ،وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعَضْبَاءَ،فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ،قَالَ:يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» فَقَالَ:بِمَ أَخَذْتَنِي،وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ؟ فَقَالَ:«إِعْظَامًا لِذَلِكَ أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ»،ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا،فَرَجَعَ إِلَيْهِ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» قَالَ:إِنِّي مُسْلِمٌ،قَالَ:«لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ»،ثُمَّ انْصَرَفَ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» قَالَ:إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي،وَظَمْآنُ فَأَسْقِنِي،قَالَ:«هَذِهِ حَاجَتُكَ»،فَفُدِيَ

---

[٧٣] – الحاوي الكبير للماوردي ٩ / ٣٨٥ ط .دار الفكر ،والفتاوى الهندية ٢ / ٣٥٣ ،والشرح الكبير مع حاشية الدسوقي ٤ / ٧٨ ،وكشاف القناع ٤ / ٢٤٥ .

[٧٤] – مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٤/ ٦٨) ،والحاوي الكبير ١٠ / ١٦ ،والحطاب ٦ / ٣٦٥ ،والخرشي ٨ / ١٧١ ،والشرح الصغير مع حاشية الصاوي عليه ٤ / ٥٨٥ ،وكشاف القناع ٤ / ٣٦٤ ،وبدائع الصنائع ٧ / ٣٤١ .والمبدع شرح المقنع –دار عالم الكتب (٥/ ٢٤٠)

بالرَّجُلَيْنِ،قَالَ:وَأُسِرَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأُصِيبَتِ الْعَضْبَاءُ،فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْوَثَاقِ وَكَانَ الْقَوْمُ يُرِيحُونَ نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتِهِمْ،فَانْفَلَتَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنَ الْوَثَاقِ،فَأَتَتِ الْإِبِلَ،فَجَعَلَتْ إِذَا دَنَتْ مِنَ الْبَعِيرِ رَغَا فَتَتْرُكُهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَضْبَاءِ،فَلَمْ تَرْغُ،قَالَ:وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ فَقَعَدَتْ فِي عَجُزِهَا،ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَانْطَلَقَتْ،وَنَذِرُوا بِهَا فَطَلَبُوهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ،قَالَ:وَنَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَلَمَّا قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ رَآهَا النَّاسُ،فَقَالُوا:الْعَضْبَاءُ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَتْ:إِنَّهَا نَذَرَتْ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ،فَقَالَ:«سُبْحَانَ اللهِ،بِئْسَمَا جَزَتْهَا،نَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ،وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ»،وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ:«لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[٧٥] .وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ،وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِه»[٧٦]

وَلِأَنَّ مَعْصِيَةَ اللَّهِ لاَ تَحِل .[٧٧]

طَاعَةُ الْمَخْلُوقِ فِي الْمَعْصِيَةِ:

لاَ طَاعَةَ لِأَحَدِ الْمَخْلُوقِينَ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَلَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوْ زَوْجًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى،بَل كُل حَقٍّ وَإِنْ عَظُمَ سَاقِطٌ إِذَا جَاءَ حَقُّ اللَّهِ ،[٧٨]

وعَنْ عَلِيٍّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.[٧٩]

الإِجَارَةُ عَلَى الْمَعَاصِي:

---

[٧٥] – صحيح مسلم (٣/ ١٢٦٢)٨ – (١٦٤١)

[ش (وأصابوا معه العضباء) أي أخذوها وهي ناقة بحيبة كانت لرجل من بني عقيل ثم انتقلت إلى رسول الله ﷺ (سابقة الحاج) أراد بها العضباء فإنها كانت لا تسبق أو لا تكاد تسبق معروفة بذلك(لو قلتها وأنت تملك أمرك) معناه لو قلت كلمة الإسلام قبل الأسر حين كنت مالك أمرك أفلحت كل الفلاح لأنه لا يجوز أسرك لو أسلمت قبل الأسر فكنت فزت بالإسلام وبالسلامة من الأسر ومن اغتنام مالك وأما إذا أسلمت بعد الأسر فيسقط الخيار في قتلك ويبقى الخيار بين الاسترقاق والمن والفداء(وناقة منوقة) أي مذللة(ونذروا بها) أي علموا وأحسوا بهربها]

[٧٦] – صحيح البخاري (٨/ ١٤٢)(٦٦٩٦) [(أن يطيع الله) نذر فعلا فيه طاعة.(أن يعصيه) نذر فعلا فيه معصية]

[٧٧] – الفتاوى الهندية ٢ / ٦٥ ،والزرقاني ٣ / ٩٣ ،والفواكه الدواني ٢ / ١٢ ،ومغني المحتاج ٤ / ٣٥٦ ،وكشاف القناع ٦ / ٢٧٥ ،والمغني ٩ / ٣ .

[٧٨] – فيض القدير للمناوي ٦ / ٤٣٢ ،وعمدة القاري ٢٤ / ٢٢٤ ط .المنيرية .

[٧٩] – مسند أحمد (عالم الكتب) (١/ ٣٧٢)(١٠٩٥) صحيح

لاَ يَجُوزُ الاسْتِئْجَارُ عَلَى الْمَعَاصِي لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ لاَ يُتَصَوَّرُ اسْتِحْقَاقُهَا بِالْعَقْدِ فَلاَ يَجِبُ عَلَى الْمُسْتَأْجِرِ أَجْرٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَحِقَّ هُوَ عَلَى الأَجِيرِ شَيْئًا،إِذِ الْمُبَادَلَةُ لاَ تَكُونُ إِلاَّ بِاسْتِحْقَاقِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى الآْخَرِ،وَلَوِ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِ لِلْمَعْصِيَةِ لَكَانَ ذَلِكَ مُضَافًا إِلَى الشَّارِعِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ شَرَعَ عَقْدًا مُوجِبًا لِلْمَعْصِيَةِ،تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ،

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الأَصْلِ:لاَ تَجُوزُ الإِجَارَةُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْغِنَاءِ وَالنَّوْحِ وَالْمَزَامِيرِ وَشَيْءٍ مِنَ اللَّهْوِ،وَلاَ إِجَارَةُ الدَّارِ لِتُجْعَلَ كَنِيسَةً أَوْ بَيْتَ نَارٍ،أَوْ لِبَيْعِ الْخَمْرِ أَوْ لِلْقِمَارِ[٨٠] .

عِصْمَةُ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمَعَاصِي

الأَنْبِيَاءُ مَعْصُومُونَ عَنِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ[٨١] .وَنَقَلَ الْقَاضِي عِيَاضٌ الإِجْمَاعَ عَلَى الْعِصْمَةِ عَنِ الصَّغِيرَةِ الْمُفْضِيَةِ لِلْخَسَّةِ وَسُقُوطِ الْمُرُوءَةِ وَالْحِشْمَةِ .[٨٢]

وَمَنَعَ الْحَنَفِيَّةُ وَبَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ صُدُورَ الصَّغَائِرِ غَيْرِ الْخَسِيسَةِ أَيْضًا .[٨٣]

---

[٨٠] – تبيين الحقائق وحاشية الشلبي بهامشه ٥ / ١٢٥ ،وكشاف القناع ٣ / ٥٥٩ ،والقوانين الفقهية ص ٢٧٤ ط .دار الكتاب العربي ،والشرح الصغير ٤ / ١٠ ،وأسنى المطالب ٢ / ٤١٣ .

[٨١] – كشف الأسرار عن أصول البزدوي ٣ / ١٩٩ ،والبحر المحيط ٤ / ١٧٠ .

[٨٢] – البحر المحيط ٤ / ١٧١ .

[٨٣] – مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (٣/ ٤٠٢) والغرر البهية في شرح البهجة الوردية (٢/ ٣٣٦) ونهاية المطلب في دراية المذهب (١٢/ ١٩) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٥/ ٣٢٥) وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (١/ ٩٨) والإبهاج في شرح المنهاج (٢/ ٢٦٣) والإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/ ١٦٩) والبحر المحيط في أصول الفقه (٦/ ١٣) وفواتح الرحموت (٢/ ٩٥)

الباب الثاني

أضرار المعصية على النفس والبدن

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

لِلْمَعَاصِي مِنَ الْآثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ،الْمُضِرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

حِرْمَانُ الْعِلْمِ

فَمِنْهَا:حِرْمَانُ الْعِلْمِ،فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ،وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ.

وَلَمَّا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِك وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وُفُورِ فِطْنَتِهِ،وَتَوَقُّدِ ذَكَائِهِ،وَكَمَالِ فَهْمِهِ،فَقَالَ:إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا،فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ.[٨٤]

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:[٨٥]

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ...فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ ...وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي

حِرْمَانُ الرِّزْقِ:

وَمِنْهَا:حِرْمَانُ الرِّزْقِ،وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ ثَوْبَانَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ،وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ،وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِذَنْبٍ يُذْنِبُهُ»[٨٦]،وَكَمَا أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ مَجْلَبَةٌ لِلرِّزْقِ فَتَرْكُ التَّقْوَى مَجْلَبَةٌ لِلْفَقْرِ،فَمَا اسْتُجْلِبَ رِزْقُ اللَّهِ بِمِثْلِ تَرْكِ الْمَعَاصِي.

---

[٨٤] – إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٩٩)

[٨٥] – أبيات مختارة تشتمل على عقيدة،نصائح،مواعظ،وصايا،حكم،أمثال،أدب (ص: ٧٣) وتراجم شعراء موقع أدب (١٠/ ٣٢٠) وصيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال (١/ ٣٤) وديوان الإمام الشافعي ص١٠٦.

[٨٦] – مسند أحمد (عالم الكتب) (٧/ ٤٦١)(٢٢٤١٣) ٢٢٧٧٧- والدعاء للطبراني (ص: ٣٠)(٣١) والقضاء والقدر للبيهقي (ص: ٢١٣)(٢٤٩) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٦٧٠)(١٨١٤) وصحيح ابن حبان

وَحْشَةٌ يَجِدُهَا الْعَاصِي فِي قَلْبِهِ

وَمِنْهَا:وَحْشَةٌ يَجِدُهَا الْعَاصِي فِي قَلْبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُوَازِنُهَا وَلَا تُقَارِنُهَا لَذَّةٌ أَصْلًا،وَلَوِ اجْتَمَعَتْ لَهُ لَذَّاتُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَمْ تَفِ بِتِلْكَ الْوَحْشَةِ،وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحِسُّ بِهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ،وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامٌ،فَلَوْ لَمْ تُتْرَكِ الذُّنُوبُ إِلَّا حَذَرًا مِنْ وُقُوعِ تِلْكَ الْوَحْشَةِ،لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيًّا بِتَرْكِهَا.

وَشَكَا رَجُلٌ إِلَى بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَحْشَةً يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ فَقَالَ لَهُ[٨٧]:

إِذَا كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ ...فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمَرُّ مِنْ وَحْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ،فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وفي المدارج:" فَاسْتِحْضَارُ الْقَلْبِ هَذَا الْبِرَّ وَالْإِحْسَانَ وَاللُّطْفَ:يُوجِبُ قُرْبَهُ مِنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.وَقُرْبُهُ مِنْهُ يُوجِبُ لَهُ الْأُنْسَ وَالْأُنْسُ ثَمَرَةُ الطَّاعَةِ وَالْمَحَبَّةِ،فَكُلُّ مُطِيعٍ مُسْتَأْنِسٌ،وَكُلُّ عَاصٍ مُسْتَوْحِشٌ،كَمَا قِيلَ:

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ ...فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

وَالْقُرْبُ يُوجِبُ الْأُنْسَ وَالْهَيْبَةَ وَالْمَحَبَّةَ."[٨٨]

وحشة بينه وبين الناس :

وَمِنْهَا:الْوَحْشَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ،وَلَاسِيَّمَا أَهْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ،فَإِنَّهُ يَجِدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ،وَكُلَّمَا قَوِيَتْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعُدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مُجَالَسَتِهِمْ،وَحُرِمَ بَرَكَةَ الِانْتِفَاعِ

- مخرجا (٣/ ١٥٣)(٨٧٢) والسنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٣٨٠)(١١٧٧٥) والمجالسة وجواهر العلم (٥/ ٨٤)(١٨٩٢) والترغيب والترهيب للمنذري (٣/ ٢١٣)(٣٧٣٣) من طرق صحيح لغيره

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: قَوْلُهُ ﷺ فِي هَذَا الْخَبَرِ لَمْ يُرِدْ بِهِ عُمُومَهُ،وَذَاكَ أَنَّ الذَّنْبَ لَا يَحْرِمُ الرِّزْقَ الَّذِي رُزِقَ الْعَبْدُ،بَلْ يُكَدِّرِ عَلَيْهِ صَفَاءَهُ إِذَا فَكَرَ فِي تَعْقِيبِ الْحَالَةِ فِيهِ.

وَدَوَامُ الْمَرْءِ عَلَى الدُّعَاءِ يُطَيِّبُ لَهُ وُرُودَ الْقَضَاءِ،فَكَأَنَّهُ رَدَّهُ لِقِلَّةِ حِسِّهِ بِأَلَمِهِ،وَالْبِرُّ يُطَيِّبُ الْعَيْشَ حَتَّى كَأَنَّهُ يُزَادُ فِي عُمْرِهِ بِطِيبِ عَيْشِهِ،وَقِلَّةُ تَعَذُّرِ ذَلِكَ فِي الْأَحْوَالِ "صحيح ابن حبان - مخرجا (٣/ ١٥٤)

[٨٧] - العزلة للخطابي (ص: ٣٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٨٨] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٣٨١)

بِهِمْ،وَقَرُبَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ،بِقَدْرِ مَا بَعُدَ مِنْ حِزْبِ الرَّحْمَنِ،وَتَقْوَى هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ،فَتَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَوَلَدِهِ وَأَقَارِبِهِ،وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ،فَتَرَاهُ مُسْتَوْحِشًا مِنْ نَفْسِهِ.

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ وَكِيعٍ حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا عَنْ عَامِرٍ قَالَ:كَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ:أَمَّا بَعْدُ:فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَدَّ حَامِدَهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًّا.

ذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ:لِيَحْذَرِ امْرُؤٌ أَنْ تَلْعَنَهُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ،ثُمَّ قَالَ:أَتَدْرِي مِمَّ هَذَا؟ قُلْتُ:لَا،قَالَ:إِنَّ الْعَبْدَ يَخْلُو بِمَعَاصِي اللَّهِ فَيُلْقِي اللَّهُ بُغْضَهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ.

وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ،أَنَّهُ لَمَّا رَكِبَهُ الدَّيْنُ اغْتَمَّ لِذَلِكَ فَقَالَ:«إِنِّي لَأَعْرِفُ هَذَا الْغَمَّ بِذَنْبٍ أَصَبْتُهُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»[٨٩].

وعن هِشَامَ،قَالَ:اغْتَمَّ ابْنُ سِيرِينَ مَرَّةً،فَقِيلَ لَهُ:يَا أَبَا بَكْرٍ،مَا هَذَا الْغَمُّ؟ فَقَالَ:«هَذَا الْغَمُّ بِذَنْبٍ أَصَبْتُهُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»[٩٠]

قَدْ لَا يُؤَثِّرُ الذَّنْبُ فِي الْحَالِ:

وَهَاهُنَا نُكْتَةٌ دَقِيقَةٌ يَغْلَطُ فِيهَا النَّاسُ فِي أَمْرِ الذَّنْبِ،وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ تَأْثِيرَهُ فِي الْحَالِ،وَقَدْ يَتَأَخَّرُ تَأْثِيرُهُ فَيُنْسَى،وَيَظُنُّ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُغَبِّرُ بَعْدَ ذَلِكَ،وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا لَمْ يُغَبِّرْ حَائِطٌ فِي وُقُوعِهِ ...فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ غُبَارُ

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا أَهْلَكَتْ هَذِهِ النُّكْتَةُ مِنَ الْخَلْقِ؟ وَكَمْ أَزَالَتْ غُبَارَ نِعْمَةٍ؟ وَكَمْ جَلَبَتْ مِنْ نِقْمَةٍ؟ وَمَا أَكْثَرَ الْمُغْتَرِّينَ بِهَا الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَلَاءِ،فَضْلًا عَنِ الْجُهَّالِ،وَلَمْ يَعْلَمِ الْمُغْتَرُّ أَنَّ

---

[٨٩] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٧١) صحيح

[٩٠] – حديث أبي الفضل الزهري (ص: ٥١٧)(٥٣٧) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٧١) صحيح – زيادة مني

الذَّنْبَ يَنْقَضُّ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ،كَمَا يَنْقَضُّ السُّمُّ،وَكَمَا يَنْقَضُّ الْجُرْحُ الْمُنْدَمِلُ عَلَى الْغِشِّ وَالدَّغَلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُرَّةَ قَالَ:قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ فِي الْمَوْتَى وَاعْلَمُوا أَنَّ قَلِيلًا يُغْنِيكُمْ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِيكُمْ،وَاعْلَمُوا أَنَّ الْبِرَّ لَا يَبْلَى وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَى "[٩١].

وَنَظَرَ بَعْضُ الْعُبَّادِ إِلَى صَبِيٍّ،فَتَأَمَّلَ مَحَاسِنَهُ،فَأُتِيَ فِي مَنَامِهِ وَقِيلَ لَهُ:لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

هَذَا مَعَ أَنَّ لِلذَّنْبِ نَقْدًا مُعَجَّلًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ،عن مُعْتَمِرَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:إِنَّ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ.[٩٢].

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ:عَجِبْتُ مِنْ ذِي عَقْلٍ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:اللَّهُمَّ لَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ،ثُمَّ هُوَ يُشْمِتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ لَهُ،قِيلَ:وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ يَعْصِي اللَّهَ وَيَشْمَتُ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ كُلُّ عَدُوٍّ.

وعن يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ قال:مَنْ خَانَ اللهَ فِي السِّرِّ هَتَكَ اللهُ سِرَّهُ فِي الْعَلَانِيَةِ.[٩٣].

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خُلُقِ دَابَّتِي،وَامْرَأَتِي.

تَعْسِيرُ أُمُورِهِ عَلَيْهِ:

وَمِنْهَا:تَعْسِيرُ أُمُورِهِ عَلَيْهِ،فَلَا يَتَوَجَّهُ لِأَمْرٍ إِلَّا يَجِدُهُ مُغْلَقًا دُونَهُ أَوْ مُتَعَسِّرًا عَلَيْهِ،وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ تَلَقَّى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا،فَمَنْ عَطَّلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا،وَيَا لَلَّهِ الْعَجَبُ! كَيْفَ يَجِدُ الْعَبْدُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ مَسْدُودَةً عَنْهُ وَطُرُقَهَا مُعَسَّرَةً عَلَيْهِ،وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ؟

---

[٩١] – الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١١١)(٧١٧) فيه انقطاع

[٩٢] – الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (مقابل) (٩/ ٣٨٧)(٦٨٣٩) صحيح

[٩٣] – الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (مقابل) (٩/ ٤١٥)(٦٩٠٣)

ظُلْمَةٌ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةً:

وَمِنْهَا:ظُلْمَةٌ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةً يَحِسُّ بِهَا كَمَا يَحِسُّ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ إِذَا ادْلَهَمَّ،فَتَصِيرُ ظُلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظُّلْمَةِ الْحِسِّيَّةِ لِبَصَرِهِ،فَإِنَّ الطَّاعَةَ نُورٌ،وَالْمَعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ،وَكُلَّمَا قَوِيَتِ الظُّلْمَةُ ازْدَادَتْ حَيْرَتُهُ،حَتَّى يَقَعَ فِي الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأُمُورِ الْمُهْلِكَةِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ،كَأَعْمَى أُخْرِجَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَمْشِي وَحْدَهُ،وَتَقْوَى هَذِهِ الظُّلْمَةُ حَتَّى تَظْهَرَ فِي الْعَيْنِ،ثُمَّ تَقْوَى حَتَّى تَعْلُوَ الْوَجْهَ،وَتَصِيرُ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ:إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ،وَنُورًا فِي الْقَلْبِ،وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ،وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ،وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ،وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ،وَظُلْمَةً فِي الْقَبْرِ وَالْقَلْبِ،وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ،وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ،وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ[٩٤].

الْمَعَاصِي تُوهِنُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ:

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَعَاصِيَ تُوهِنُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ،أَمَّا وَهْنُهَا لِلْقَلْبِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ،بَلْ لَا تَزَالُ تُوهِنُهُ حَتَّى تُزِيلَ حَيَاتَهُ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَأَمَّا وَهْنُهَا لِلْبَدَنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قُوَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ،وَكُلَّمَا قَوِيَ قَلْبُهُ قَوِيَ بَدَنُهُ،وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَإِنَّهُ - وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ - فَهُوَ أَضْعَفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ،فَتَخُونُهُ قُوَّتُهُ عِنْدَ أَحْوَجِ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ فَتَأَمَّلْ قُوَّةَ أَبْدَانِ فَارِسَ وَالرُّومِ،كَيْفَ خَانَتْهُمْ،أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا،وَقَهَرَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ؟

وَمِنْهَا:حِرْمَانُ الطَّاعَةِ،فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلذَّنْبِ عُقُوبَةٌ إِلَّا أَنْ يَصُدَّ عَنْ طَاعَةٍ تَكُونُ بَدَلَهُ،وَيَقْطَعَ طَرِيقَ طَاعَةٍ أُخْرَى،فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَرِيقٌ ثَالِثَةٌ،ثُمَّ رَابِعَةٌ،وَهَلُمَّ جَرًّا،فَيَنْقَطِعُ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ،كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا،وَهَذَا كَرَجُلٍ أَكَلَ أَكْلَةً أَوْجَبَتْ لَهُ مَرَضَةً طَوِيلَةً مَنَعَتْهُ مِنْ عِدَّةِ أَكَلَاتٍ أَطْيَبَ مِنْهَا،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

[٩٤] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٢٣)

طُولُ الْعُمُرِ وَقِصَرُهُ:

وَمِنْهَا:أَنَّ الْمَعَاصِيَ تُقَصِّرُ الْعُمُرَ وَتَمْحَقُ بَرَكَتَهُ وَلَا بُدَّ،فَإِنَّ الْبِرَّ كَمَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ،فَالْفُجُورُ يُقَصِّرُ الْعُمُرَ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:نُقْصَانُ عُمُرِ الْعَاصِي هُوَ ذَهَابُ بَرَكَةِ عُمُرِهِ وَمَحْقُهَا عَلَيْهِ،وَهَذَا حَقٌّ،وَهُوَ بَعْضُ تَأْثِيرِ الْمَعَاصِي.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:بَلْ تُنْقِصُهُ حَقِيقَةً،كَمَا تُنْقِصُ الرِّزْقَ،فَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْبَرَكَةِ فِي الرِّزْقِ أَسْبَابًا كَثِيرَةً تُكَثِّرُهُ وَتَزِيدُهُ،وَلِلْبَرَكَةِ فِي الْعُمُرِ أَسْبَابًا تُكَثِّرُهُ وَتَزِيدُهُ.

قَالُوا وَلَا تُمْنَعُ زِيَادَةُ الْعُمُرِ بِأَسْبَابٍ كَمَا يُنْقَصُ بِأَسْبَابٍ،فَالْأَرْزَاقُ وَالْآجَالُ،وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ،وَالصِّحَّةُ وَالْمَرَضُ،وَالْغِنَى وَالْفَقْرُ،وَإِنْ كَانَتْ بِقَضَاءِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ،فَهُوَ يَقْضِي مَا يَشَاءُ بِأَسْبَابٍ جَعَلَهَا مُوجِبَةً لِمُسَبَّبَاتِهَا مُقْتَضِيَةً لَهَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى:تَأْثِيرُ الْمَعَاصِي فِي مَحْقِ الْعُمُرِ إِنَّمَا هُوَ بِأَنَّ حَقِيقَةَ الْحَيَاةِ هِيَ حَيَاةُ الْقَلْبِ،وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَافِرَ مَيِّتًا غَيْرَ حَيٍّ،كَمَا قَالَ تَعَالَى،{أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} [سُورَةُ النَّحْلِ:٢١] .

فَالْحَيَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ حَيَاةُ الْقَلْبِ،وَعُمُرُ الْإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَّاتِهِ فَلَيْسَ عُمُرُهُ إِلَّا أَوْقَاتَ حَيَاتِهِ بِاللَّهِ،فَتِلْكَ سَاعَاتُ عُمُرِهِ،فَالْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالطَّاعَةُ تَزِيدُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ عُمُرِهِ،وَلَا عُمُرَ لَهُ سِوَاهَا.

وَبِالْجُمْلَةِ،فَالْعَبْدُ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَاشْتَغَلَ بِالْمَعَاصِي ضَاعَتْ عَلَيْهِ أَيَّامُ حَيَاتِهِ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يَجِدُ غِبَّ إِضَاعَتِهَا يَوْمَ يَقُولُ:{يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [سُورَةُ الْفَجْرِ:٢٤] .

فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ تَطَلُّعٌ إِلَى مَصَالِحِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ أَوْ لَا،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ ضَاعَ عَلَيْهِ عُمُرُهُ كُلُّهُ،وَذَهَبَتْ حَيَاتُهُ بَاطِلًا،وَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ طَالَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ بِسَبَبِ الْعَوَائِقِ،وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ بِحَسْبِ اشْتِغَالِهِ بِأَضْدَادِهَا،وَذَلِكَ نُقْصَانٌ حَقِيقِيٌّ مِنْ عُمُرِهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ عُمُرَ الْإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَاتِهِ وَلَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِإِقْبَالِهِ عَلَى رَبِّهِ،وَالتَّنَعُّمِ بِحُبِّهِ وَذِكْرِهِ،وَإِيثَارِ مَرْضَاتِهِ.

تَوَالُدُ الْمَعَاصِي:

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَعَاصِيَ تَزْرَعُ أَمْثَالَهَا،وَتُولِدُ بَعْضَهَا بَعْضًا،حَتَّى يَعِزَّ عَلَى الْعَبْدِ مُفَارَقَتُهَا وَالْخُرُوجُ مِنْهَا،كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:إِنَّ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا،وَإِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا،فَالْعَبْدُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً قَالَتْ أُخْرَى إِلَى جَنْبِهَا:اعْمَلْنِي أَيْضًا،فَإِذَا عَمِلَهَا،قَالَتِ الثَّالِثَةُ كَذَلِكَ وَهَلُمَّ جَرًّا،فَتَضَاعَفُ الرِّبْحُ،وَتَزَايَدَتِ الْحَسَنَاتُ.

وَكَذَلِكَ كَانَتِ السَّيِّئَاتُ أَيْضًا،حَتَّى تَصِيرَ الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً،وَصِفَاتٍ لَازِمَةً،وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً،فَلَوْ عَطَّلَ الْمُحْسِنُ الطَّاعَةَ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ،وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ،وَأَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ،حَتَّى يُعَاوِدَهَا،فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ،وَتَقَرَّ عَيْنُهُ.

وَلَوْ عَطَّلَ الْمُجْرِمُ الْمَعْصِيَةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الطَّاعَةِ؛ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَضَاقَ صَدْرُهُ،وَأَعْيَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ،حَتَّى يُعَاوِدَهَا،حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُسَّاقِ لَيُوَاقِعُ الْمَعْصِيَةَ مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ يَجِدُهَا،وَلَا دَاعِيَةٍ إِلَيْهَا،إِلَّا بِمَا يَجِدُ مِنَ الْأَلَمِ بِمُفَارَقَتِهَا.

كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شَيْخُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ حَيْثُ يَقُولُ:[٩٥]

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ ...وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وَقَالَ الْآخَرُ:

فَكَانَتْ دَوَائِي وَهْيَ دَائِي بِعَيْنِهِ ...كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ

وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُعَانِي الطَّاعَةَ وَيَأْلَفُهَا وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِرَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ تَؤُزُّهُ إِلَيْهَا أَزًّا،وَتُحَرِّضُهُ عَلَيْهَا،وَتُزْعِجُهُ عَنْ فِرَاشِهِ وَمَجْلِسِهِ إِلَيْهَا.

---

[٩٥] – البيت منسوب للأعشى البخلاء للجاحظ (ص: ١٣٦) والبديع في نقد الشعر (ص: ٢٢٦) والجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: ٣٠) والحيوان (٧/ ٩٩) والشعر والشعراء (١/ ٧٤) والمختار من شعر شعراء الأندلس (ص: ٤٢)

وَلَا يَزَالُ يَأْلَفُ الْمَعَاصِيَ وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا،حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ إِلَيْهِ الشَّيَاطِينَ،فَتَؤُزُّهُ إِلَيْهَا أَزًّا.
فَالْأَوَّلُ قَوِيٌّ جَنَّدَ الطَّاعَةَ بِالْمَدَدِ،فَكَانُوا مِنْ أَكْبَرِ أَعْوَانِهِ،وَهَذَا قَوِيٌّ جَنَّدَ الْمَعْصِيَةَ بِالْمَدَدِ فَكَانُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ.

الْمَعْصِيَةُ تُضْعِفُ إِرَادَةَ الْخَيْرِ:

وَمِنْهَا:- وَهُوَ مِنْ أَخْوَفِهَا عَلَى الْعَبْدِ - أَنَّهَا تُضْعِفُ الْقَلْبَ عَنْ إِرَادَتِهِ،فَتُقَوِّي إِرَادَةَ الْمَعْصِيَةِ،وَتُضْعِفُ إِرَادَةَ التَّوْبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا،إِلَى أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ قَلْبِهِ إِرَادَةُ التَّوْبَةِ بِالْكُلِّيَّةِ،فَلَوْ مَاتَ نِصْفُهُ لَمَا تَابَ إِلَى اللَّهِ،فَيَأْتِي بِالِاسْتِغْفَارِ وَتَوْبَةِ الْكَذَّابِينَ بِاللِّسَانِ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ،وَقَلْبُهُ مَعْقُودٌ بِالْمَعْصِيَةِ،مُصِرٌّ عَلَيْهَا،عَازِمٌ عَلَى مُوَاقَعَتِهَا مَتَى أَمْكَنَهُ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَاضِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى الْهَلَاكِ.

إِلْفُ الْمَعْصِيَةِ:

وَمِنْهَا:أَنَّهُ يَنْسَلِخُ مِنَ الْقَلْبِ اسْتِقْبَاحُهَا،فَتَصِيرُ لَهُ عَادَةً،فَلَا يَسْتَقْبِحُ مِنْ نَفْسِهِ رُؤْيَةَ النَّاسِ لَهُ،وَلَا كَلَامَهُمْ فِيهِ.
وَهَذَا عِنْدَ أَرْبَابِ الْفُسُوقِ هُوَ غَايَةُ التَّهَتُّكِ وَتَمَامُ اللَّذَّةِ،حَتَّى يَفْتَخِرَ أَحَدُهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ،وَيُحَدِّثَ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ عَمِلَهَا،فَيَقُولُ:يَا فُلَانُ،عَمِلْتُ كَذَا وَكَذَا.
وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يُعَافَوْنَ،وَتُسَدُّ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ التَّوْبَةِ،وَتُغْلَقُ عَنْهُمْ أَبْوَابُهَا فِي الْغَالِبِ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ،عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ،وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا،ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ،فَيَقُولَ:يَا فُلَانُ،عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا،وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ،وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ "[٩٦] .

---

[٩٦] - صحيح البخاري (٨/ ٢٠)(٦٠٦٩) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩١)٥٢ - (٢٩٩٠)
[ش (معافى) يعفو الله تعالى عن زلته بفضله ورحمته.(المجاهرون) المعلنون بالمعاصي والفسوق.(المجاهرة) وفي رواية (المجانة) وهي الاستهتار بالأمور وعدم المبالاة بالقول أو الفعل.(البارحة) أقرب ليلة مضت من وقت القول]

الْمَعَاصِي مَوَارِيثُ:

وَمِنْهَا أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي فَهِيَ مِيرَاثٌ عَنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

فَاللُّوطِيَّةُ:مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ.

وَأَخْذُ الْحَقِّ بِالزَّائِدِ وَدَفْعُهُ بِالنَّاقِصِ،مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ.

وَالْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ،مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ.

وَالتَّكَبُّرُ وَالتَّجَبُّرُ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ هُودٍ.

فَالْعَاصِي لَابِسٌ ثِيَابَ بَعْضِ هَذِهِ الْأُمَمِ،وَهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ عن مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ:«أَوْحَى اللهُ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ لَا تَدْخُلُوا مَدَاخِلَ أَعْدَائِي وَلَا تَطْعَمُوا مَطَاعِمَ أَعْدَائِي وَلَا تَلْبَسُوا مَلَابِسَ أَعْدَائِي وَلَا تَرْكَبُوا مَرَاكِبَ أَعْدَائِي فَتَكُونُوا أَعْدَائِي كَمَا هُمْ أَعْدَائِي»[٩٧].

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي،وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي،وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ..[٩٨]

هَوَانُ الْعَاصِي عَلَى رَبِّهِ:

وَمِنْهَا:أَنَّ الْمَعْصِيَةَ سَبَبٌ لِهَوَانِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ،وَلَوْ عَزُّوا عَلَيْهِ لَعَصَمَهُمْ،وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ لَمْ يُكْرِمْهُ أَحَدٌ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [سُورَةُ

---

[٩٧] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٧١) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ١١٠) (٧٧) صحيح مقطوع

[٩٨] – مسند أحمد (عالم الكتب) (٢/ ٣٤٠)(٥١١٥) حسن

الْحَجِّ:١٨] وَإِنْ عَظَّمَهُمُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِمْ أَوْ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِمْ،فَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَحْقَرُ شَيْءٍ وَأَهْوَنُهُ.

وعن أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّه،قَالَ:سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مُعَاذٍ الرَّازِيَّ،يَقُولُ:«إِنَّمَا نَشَطُوا إِلَيْهِ عَلَى قَدْرِ مَنَازِلِهِمْ لَدَيْهِ،هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ،وَلَوْ كَرُمُوا عَلَيْهِ لَأَطَاعُوهُ»[٩٩]

قَالَ أبو سُلَيْمَانَ:«إِنَّمَا هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ وَلَوْ كَرُمُوا عَلَيْهِ لَمَنَعَهُمْ مِنْهَا»[١٠٠]

هَوَانُ الْمَعَاصِي عَلَى الْمُصِرِّينَ:

وَمِنْهَا:أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ يَرْتَكِبُ الذَّنْبَ حَتَّى يَهُونَ عَلَيْهِ وَيَصْغُرَ فِي قَلْبِهِ،وَذَلِكَ عَلَامَةُ الْهَلَاكِ،فَإِنَّ الذَّنْبَ كُلَّمَا صَغُرَ فِي عَيْنِ الْعَبْدِ عَظُمَ عِنْدَ اللَّه.

وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ الحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ،حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ،حَدِيثَيْنِ:أَحَدُهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،وَالآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ،قَالَ:«إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ،وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ» فَقَالَ بِهِ هَكَذَا،قَالَ أَبُو شِهَابٍ:بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ"[١٠١].

شُؤْمُ الذُّنُوبِ

وَمِنْهَا:أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ يَعُودُ عَلَيْهِ شُؤْمُ ذَنْبِهِ،فَيَحْتَرِقُ هُوَ وَغَيْرُهُ بِشُؤْمِ الذُّنُوبِ وَالظُّلْمِ.

---

[٩٩] – الإبانة الكبرى لابن بطة (٤/ ٢٩٣)(١٩٤٥) زيادة مني

[١٠٠] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢٦١) – زيادة مني

[١٠١] – صحيح البخاري (٨/ ٦٨)(٦٣٠٨)

[ش (الآخر عن نفسه) أي لم يروه عن النبي ﷺ وهو قوله إن المؤمن.(أن يقع عليه) المعنى أنه يخاف ألا ينجو من الهلاك كما لو كان جبل سيسقط عليه.(الفاجر) العاصي والفاسق.(كذباب مر على أنفه) كناية عن عدم اكتراثه بالذنب]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ:إِنَّ الظَّالِمَ لاَ يَضُرُّ إِلاَّ نَفْسَهُ،فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:بَلَى وَاللهِ،حَتَّى الْحُبَارَى لَتَمُوتُ فِي وَكْرِهَا هَزْلاً لِظُلْمِ الظَّالِمِ.[١٠٢].

عَنْ مُجَاهِد،فِي قَوْلِ اللَّه:أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ قَالَ الْبَهَائِمُ،الإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ،تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ إِذَا أَجْدَبَتِ الأَرْضُ[١٠٣].

وعَنْ عِكْرِمَةَ،فِي قَوْلِه:{أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة:١٥٩] قَالَ " يَلْعَنُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْخَنَافِسُ وَالْعَقَارِبُ يَقُولُونَ:مُنِعْنَا الْقَطْرُ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ "[١٠٤].

فَلَا يَكْفِيهِ عِقَابُ ذَنْبِهِ،حَتَّى يَلْعَنَهُ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ.

الْمَعْصِيَةُ تُورِثُ الذُّلَّ:

وَمِنْهَا:أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تُورِثُ الذُّلَّ وَلَا بُدَّ؛ فَإِنَّ الْعِزَّ كُلَّ الْعِزِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى،قَالَ تَعَالَى:{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [سُورَةُ فَاطِرٍ:١٠] أَيْ فَلْيَطْلُبْهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ،فَإِنَّهُ لَا يَجِدُهَا إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

وَعَنْ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ:كَانَ مِنْ دُعَاءِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ:«اللهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ،وَلَا تُخْزِنِي بِمَعْصِيَتِكَ،اللهُمَّ ارْزُقْنِي مُوَاسَاةَ مَنْ قَتَرْتَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ بِمَا وَسَّعْتَ عَلَيَّ فَضْلَكَ»[١٠٥]

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ،وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ،إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَا يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ،أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ.[١٠٦]

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:[١٠٧]

---

[١٠٢] – الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (مقابل) (٩/ ٥٤٤)(٧٠٧٥) فيه جهالة

[١٠٣] – تفسير ابن أبي حاتم – محققا (١/ ٢٧٠)(١٤٤٨) صحيح

[١٠٤] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢/ ٧٣٤) صحيح

[١٠٥] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ١٩٦) فيه جهالة

[١٠٦] – إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٤٨) وروضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ١٠٢)

[١٠٧] – الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (مقابل) (٩/ ٤٢٢)(٦٩١٨) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٢٧٩) وموسوعة الشعر الإسلامي (٥٩/ ١) صحيح

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ...وَيُتْبِعُهَا الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ...وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَلْ بَدَّلَ الدِّينَ إِلاَّ الْمُلُوكُ ...وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا
وَبَاعُوا النُّفُوسَ فَلَمْ يَرْبَحُوا ...وَفِي الْبَيْعِ لَمْ تَغْلُ أَثْمَانُهَا
لَقَدْ وَقَعَ الْقَوْمُ فِي جِيفَةٍ ...يَبِينُ لِذِي الْعَقْلِ أَنْتَانُهَا.

الْمَعَاصِي تُفْسِدُ الْعَقْلَ:

وَمِنْهَا:أَنَّ الْمَعَاصِيَ تُفْسِدُ الْعَقْلَ،فَإِنَّ لِلْعَقْلِ نُورًا،وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ نُورَ الْعَقْلِ وَلَا بُدَّ،وَإِذَا طُفِئَ نُورُهُ ضَعُفَ وَنَقَصَ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:مَا عَصَى اللَّهَ أَحَدٌ حَتَّى يَغِيبَ عَقْلُهُ،وَهَذَا ظَاهِرٌ،فَإِنَّهُ لَوْ حَضَرَ عَقْلُهُ لَحَجَزَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَهُوَ فِي قَبْضَةِ الرَّبِّ تَعَالَى،أَوْ تَحْتَ قَهْرِهِ،وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ،وَفِي دَارِهِ عَلَى بِسَاطِهِ وَمَلَائِكَتُهُ شُهُودٌ عَلَيْهِ نَاظِرُونَ إِلَيْهِ،وَوَاعِظُ الْقُرْآنِ يَنْهَاهُ،وَوَاعِظُ الْمَوْتِ يَنْهَاهُ،وَوَاعِظُ النَّارِ يَنْهَاهُ،وَالَّذِي يَفُوتُهُ بِالْمَعْصِيَةِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَضْعَافُ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ السُّرُورِ وَاللَّذَّةِ بِهَا،فَهَلْ يُقْدِمُ عَلَى الِاسْتِهَانَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ،وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ؟

الذُّنُوبُ تَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ:

وَمِنْهَا:أَنَّ الذُّنُوبَ إِذَا تَكَاثَرَتْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهَا،فَكَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ.

كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ:١٤][١٠٨]،قَالَ:هُوَ الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ.

---

[١٠٨] – الذي حَجَبَ عَنْ قُلُوبِهِمْ الإِيْمَانَ هُوَ مَا عَلاَ قُلُوبَهُمْ وَغَطَّاهَا مِنْ تَرَاكُمْ الذُّنُوب،وَتَوَالِي الإِقْدَامِ عَلَى مُنْكَرِ الأَعْمَالِ،حَتَّى اعْتَادُوهَا،وَصَارَتْ سَبَباً لَهُمْ لِحُصُولِ الرِّيْنِ عَلَى قُلُوبِهِمْ،الأُمُورِ عَلَيْهِمْ.(أَي إِنَّ قُلُوبَهُمْ عَمِيَتْ مِنَ الذُّنُوبِ وَمَاتَ فِيهَا الإِحْسَاسُ) .أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٧٣٩،بترقيم الشاملة آليا)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [المطففين:١٤] قَالَ:«يُطْبَعُ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ حَتَّى يَنْكُتُ عَلَى الْقَلْبِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ»[١٠٩]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ،فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَتْ،فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا،وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ فِيهِ،فَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا:{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين:١٤]»[١١٠]

قَال الْمُحَاسِبِيُّ:اعْلَمْ أَنَّ الذُّنُوبَ تُورِثُ الْغَفْلَةَ وَالْغَفْلَةُ تُورِثُ الْقَسْوَةَ وَالْقَسْوَةُ تُورِثُ الْبُعْدَ مِنَ اللَّهِ وَالْبُعْدُ مِنَ اللَّهِ يُورِثُ النَّارَ،وَإِنَّمَا يَتَفَكَّرُ فِي هَذَا الأَحْيَاءُ،وَأَمَّا الأَمْوَاتُ فَقَدْ أَمَاتُوا أَنْفُسَهُمْ بِحُبِّ الدُّنْيَا .[١١١]

عَنِ الْحَسَنِ،فِي قَوْلِهِ:{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين:١٤] قَالَ:الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ حَتَّى يَعْمَى الْقَلْبُ فَيَمُوتَ[١١٢].

وَقَالَ غَيْرُهُ:لَمَّا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ أَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ.

وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدَأُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ،فَإِذَا زَادَتْ غَلَبَ الصَّدَأُ حَتَّى يَصِيرَ رَانًا،ثُمَّ يَغْلِبُ حَتَّى يَصِيرَ طَبْعًا وَقُفْلًا وَخَتْمًا،فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي غِشَاوَةٍ وَغِلَافٍ،فَإِذَا حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ بَعْدَ الْهُدَى وَالْبَصِيرَةِ انْعَكَسَ فَصَارَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ،فَحِينَئِذٍ يَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ وَيَسُوقُهُ حَيْثُ أَرَادَ.

الذُّنُوبُ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -

وَمِنْهَا:أَنَّ الذُّنُوبَ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَإِنَّهُ لَعَنَ عَلَى مَعَاصِي وَالَّتِي غَيْرُهَا أَكْبَرُ مِنْهَا،فَهِيَ أَوْلَى بِدُخُولِ فَاعِلِهَا تَحْتَ اللَّعْنَةِ.

فَلَعَنَ الْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ،وَالْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ،وَالنَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ[١١٣]،وَالْوَاشِرَةَ وَالْمُسْتَوْشِرَةَ.[١١٤]

---

[١٠٩] – فوائد تمام (٢/ ١١٥)(١٢٩٤) حسن – زيادة مني

[١١٠] – صحيح ابن حبان – مخرجا (٧/ ٢٧)(٢٧٨٧) حسن

[١١١] – رسالة المسترشدين (ص: ١٥٤)

[١١٢] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٤/ ٢٠١) صحيح – زيادة مني

وَلَعَنَ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ[١١٥] وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَهُ[١١٦].

وَلَعَنَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ[١١٧].

وَلَعَنَ السَّارِقَ.[١١٨]

وَلَعَنَ شَارِبَ الْخَمْرِ وَسَاقِيَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا،وَبَائِعَهَا وَمُشْتَرِيَهَا،وَآكِلَ ثَمَنِهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ.[١١٩]

وَلَعَنَ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ[١٢٠] وَهِيَ أَعْلَامُهَا وَحُدُودُهَا.

وَلَعَنَ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ.[١٢١]

وَلَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا[١٢٢] يَرْمِيهِ بِسَهْمٍ.

وَلَعَنَ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالْمُتَرَجِّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ[١٢٣].

وَلَعَنَ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ.[١٢٤]

وَلَعَنَ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا.[١٢٥]

وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ.[١٢٦]

---

[١١٣] – مسند أحمد ط الرسالة (٤٣/ ٢٧٣)(٢٦٢٠٦) صحيح لغيره
قَالَ أَبُو دَاوُدَ: " وَتَفْسِيرُ الْوَاصِلَةِ: الَّتِي تَصِلُ الشَّعْرَ بِشَعْرِ النِّسَاءِ،وَالْمُسْتَوْصِلَةُ: الْمَعْمُولُ بِهَا،وَالنَّامِصَةُ: الَّتِي تَنْقُشُ الْحَاجِبَ حَتَّى تُرِقَّهُ،وَالْمُتَنَمِّصَةُ: الْمَعْمُولُ بِهَا،وَالْوَاشِمَةُ: الَّتِي تَجْعَلُ الْخِيلَانَ فِي وَجْهِهَا بِكُحْلٍ أَوْ مِدَادٍ،وَالْمُسْتَوْشِمَةُ: الْمَعْمُولُ بِهَا "سنن أبي داود (٤/ ٧٨)(٤١٧٠) صحيح

[١١٤] – مسند عمر بن عبد العزيز للباغندي (ص: ١٦٦)(٨٤) صحيح

[١١٥] – صحيح البخاري (٧/ ٦١)(٥٣٤٧)

[١١٦] – صحيح مسلم (٣/ ١٢١٩)١٠٦ - (١٥٩٨)

[١١٧] – سنن أبي داود (٢/ ٢٢٧)(٢٠٧٦) صحيح

[١١٨] – صحيح البخاري (٨/ ١٥٩)(٦٧٨٣)

[١١٩] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٢/ ١٧٨)(٥٣٥٦) صحيح

[١٢٠] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٦٧)٤٣ - (١٩٧٨)

[١٢١] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٦٧)٤٤ - (١٩٧٨)

[١٢٢] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٥٠)(١٩٥٨)

[١٢٣] – صحيح البخاري (٨/ ١٧١)(٦٨٣٤)

[١٢٤] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٦٧)٤٣ - (١٩٧٨)

[١٢٥] – صحيح البخاري (٤/ ١٠٢)(٣١٧٩)

وَلَعَنَ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ.[١٢٧]
وَلَعَنَ مَنْ سَبَّ أَبَاهُ وَأُمَّهُ[١٢٨].
وَلَعَنَ مَنْ كَمِهَ أَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ[١٢٩].
وَلَعَنَ مَنْ أَتَى بَهِيمَةً.[١٣٠]
وَلَعَنَ مَنْ وَسَمَ دَابَّةً فِي وَجْهِهَا[١٣١].
وَلَعَنَ مَنْ ضَارَّ مُسْلِمًا أَوْ غَرَّهُ[١٣٢].
وَلَعَنَ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ[١٣٣].
وَلَعَنَ مَنْ أَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا،أَوْ مَمْلُوكًا عَلَى سَيِّدِهِ[١٣٤].
وَلَعَنَ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا.[١٣٥]
وَأَخْبَرَ «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ مُهَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا،لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ»[١٣٦].
وَلَعَنَ مَنِ انْتَسَبَ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ[١٣٧].

---

[١٢٦] – صحيح البخاري (٧/ ٦١)(٥٣٤٧)

[١٢٧] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٠/ ٢٦٥)(٤٤١٧) صحيح

[١٢٨] – صحيح البخاري (٨/ ٣)(٥٩٧٣) وصحيح مسلم (١/ ٩٢)١٤٦ – (٩٠) ومسند أحمد (عالم الكتب) (١/ ٥٧٩)(١٨٧٥)

[١٢٩] – مسند أحمد (عالم الكتب) (١/ ٨٠٦)(٢٩١٤) ٢٩١٦ صحيح – "ملعون من كمه أعمى" أي: أضله.

[١٣٠] – مسند أحمد ط الرسالة (٣/ ٣٦٧)(١٨٧٥) حسن

[١٣١] – صحيح مسلم (٣/ ١٦٧٣)١٠٧ – (٢١١٧)

[١٣٢] – مسند البزار = البحر الزخار (١/ ١٠٥)(٤٣) حسن – وفي الأصل أو مكر به وهما بمعنى واحد لكن الثابت هذا

[١٣٣] – السنن الكبرى للبيهقي (٤/ ١٣٠)(٧٢٠٦) صحيح وزيارة النساء للقبور جائزة بشروط وهذا محمول على من تزع أو تفعل بعض المحرمات

[١٣٤] – المشهور هذا الحديث الذي جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا،أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ» سنن أبي داود (٢/ ٢٥٤)(٢١٧٥) صحيح

[١٣٥] – صحيح ابن حبان – مخرجا (٩/ ٥١٧)(٤٢٠٣) صحيح

[١٣٦] – صحيح البخاري (٧/ ٣٠)(٥١٩٤) وصحيح مسلم (٢/ ١٠٦٠)١٢٢ – (١٤٣٦) هذا هو المشهور وذكره المؤلف بالمعنى

[١٣٧] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٠/ ٢٦٥)(٤٤١٧) صحيح

وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخيه بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ.[١٣٨]

وَلَعَنَ مَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ.[١٣٩]

وَلَعَنَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ[١٤٠].

وَلَعَنَ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي وَالرَّائِشَ[١٤١]،وَهُوَ:الْوَاسِطَةُ فِي الرِّشْوَةِ.

مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ

وَقَدْ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَقَطَعَ رَحِمَهُ[١٤٢]،وَآذَاهُ وَآذَى رَسُولَهُ - ﷺ[١٤٣]-.

وَلَعَنَ مَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى.[١٤٤]

وَلَعَنَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ بِالْفَاحِشَةِ[١٤٥].

وَلَعَنَ مَنْ جَعَلَ سَبِيلَ الْكَافِرِ أَهْدَى مِنْ سَبِيلِ الْمُسْلِمِ.[١٤٦]

وَلَعَنَ عَلَى أَشْيَاءَ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ[١٤٧].

---

[١٣٨] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٠)١٢٥ - (٢٦١٦)

[ش (من أشار إلى أخيه بحديدة) فيه تأكيد حرمة المسلم والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه]

[١٣٩] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٣٠٩)(٣٣٠٨٦) ومسند البزار = البحر الزخار (١٢/ ١٥٥)(٥٧٥٣) وفضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٥٢)(٨) صحيح لغيره

[١٤٠] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٣/ ٦٢)(٥٧٥١) صحيح

[١٤١] - شعب الإيمان (٧/ ٣٥٤)(٥١١٥) صحيح

[١٤٢] - {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)} [محمد: ٢٢،٢٣]

[١٤٣] - {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (} [الأحزاب: ٥٧]

[١٤٤] - {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } [البقرة: ١٥٩]

[١٤٥] - {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النور: ٢٣]

[١٤٦] - {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)} [النساء]

[١٤٧] - [المائدة: ٧٨] و[الأحزاب: ٦٤] و [البقرة: ٨٨] و[البقرة: ٨٩] و[البقرة: ١٦١] و[آل عمران: ٨٦ - ٨٨] و[النساء: ٤٦] و[النساء: ٩٣] و [النساء: ١١٨] و [المائدة: ١٣]....

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِ ذَلِكَ إِلَّا رِضَاءُ فَاعِلِهِ بِأَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَلْعَنُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَلَائِكَتُهُ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُو إِلَى تَرْكِهِ.

حِرْمَانُ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَمِنْهَا:حِرْمَانُ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَدَعْوَةِ الْمَلَائِكَةِ،فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ،وَقَالَ تَعَالَى:{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ - رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سُورَةُ غَافِرٍ:٧ - ٩] .

فَهَذَا دُعَاءُ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ التَّائِبِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الَّذِينَ لَا سَبِيلَ لَهُمْ غَيْرُهُمَا،فَلَا يَطْمَعُ غَيْرُ هَؤُلَاءِ بِإِجَابَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ،إِذْ لَمْ يَتَّصِفْ بِصِفَاتِ الْمَدْعُوِّ لَهُ بِهَا،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

مَا رَآهُ الرَّسُولُ - ﷺ - مِنْ عُقُوبَاتِ الْعُصَاةِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ:«هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» قَالَ:فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ،وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ:«إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ،وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي،وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي انْطَلِقْ،وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا،وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ،وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ،وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ،فَيَتَدَهْدَهُ الْحَجَرُ هَا هُنَا،فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ،فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ،ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى» قَالَ:" قُلْتُ لَهُمَا:سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ؟ " قَالَ:" قَالَا لِي:انْطَلِقِ انْطَلِقْ " قَالَ:" فَانْطَلَقْنَا،فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ،وَإِذَا

آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ،وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ،وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ،وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ،- قَالَ:وَرُبَّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ:فَيَشُقُّ - " قَالَ:«ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الأَوَّلِ،فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ،ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى» قَالَ:" قُلْتُ:سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ؟ " قَالَ:" قَالاَ لِي:انْطَلِقِ انْطَلِقْ،فَانْطَلَقْنَا،فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ - قَالَ:فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ " قَالَ:«فَاطَّلَعْنَا فِيهِ،فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ،وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ،فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا» قَالَ:" قُلْتُ لَهُمَا:مَا هَؤُلاَءِ؟ " قَالَ:" قَالاَ لِي:انْطَلِقِ انْطَلِقْ " قَالَ:«فَانْطَلَقْنَا،فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ [ص:٤٥] يَقُولُ - أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ،وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ،وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً،وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ،ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ،فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ،ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا» قَالَ:" قُلْتُ لَهُمَا:مَا هَذَانِ؟ " قَالَ:" قَالاَ لِي:انْطَلِقِ انْطَلِقْ " قَالَ:«فَانْطَلَقْنَا،فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ،كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلًا مَرْآةً،وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا» قَالَ:" قُلْتُ لَهُمَا:مَا هَذَا؟ " قَالَ:" قَالاَ لِي:انْطَلِقِ انْطَلِقْ،فَانْطَلَقْنَا،فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ،فِيهَا مِنْ كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ،وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ،لاَ أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولًا فِي السَّمَاءِ،وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ " قَالَ:" قُلْتُ لَهُمَا:مَا هَذَا مَا هَؤُلاَءِ؟ " قَالَ:" قَالاَ لِي:انْطَلِقِ انْطَلِقْ " قَالَ:«فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ،لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلاَ أَحْسَنَ» قَالَ:" قَالاَ لِي:ارْقَ فِيهَا " قَالَ:«فَارْتَقَيْنَا فِيهَا،فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ،فَأَتَيْنَا بَابَ المَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا فَدَخَلْنَاهَا،فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ،وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ» قَالَ:" قَالاَ لَهُمْ:اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ " قَالَ:«وَإِذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ المَحْضُ فِي البَيَاضِ،فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ،ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ،فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ» قَالَ:" قَالاَ لِي:هَذِهِ

جَنَّةُ عَدْنٍ وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ " قَالَ:«فَسَمَا بَصَرِي صُعُدًا فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ» قَالَ:" قَالاَ لِي:هَذَاكَ مَنْزِلُكَ " قَالَ:" قُلْتُ لَهُمَا:بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا ذَرَانِي فَأَدْخُلَهُ،قَالاَ:أَمَّا الآنَ فَلاَ،وَأَنْتَ دَاخِلَهُ " قَالَ:" قُلْتُ لَهُمَا:فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا،فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ " قَالَ:" قَالاَ لِي:أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ،أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ،فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ،وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ،يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ،وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ،وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ،فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ،فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ،وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ،فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي،وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ،فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا،وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ،الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا،فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ،وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ [ص:٤٦] الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ،وَأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ " قَالَ:فَقَالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ،وَأَمَّا القَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنًا وَشَطْرٌ قَبِيحًا،فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا،تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ»[١٤٨]

الذُّنُوبُ تُحْدِثُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ:

[١٤٨] - صحيح البخاري (٩/ ٤٤)(٧٠٤٧)

[ش(فيتدهده) ينحط من علو إلى سفل وفي رواية (فيتدأدأ) أي يتدحرج.(فيشرشر) يقطع.(فيشق) أي بدل (فيشرشر).(ضوضوا) رفعوا أصواتهم مختلطة.(المرآة) المنظر.(معتمة) وفي نسخة (معتمة) أي غطاها الخصب أي كثيرة النبت.(لون الربيع) وفي نسخة (نور الربيع) أي زهر الشجر في الربيع.(ارق) اصعد.(المحض) اللبن الخالص من الماء(فسما بصري) نظر إلى فوق.(صعدا) صاعدا في ارتفاع كثير.(الربابة) السحابة وقيل السحابة التي ركب بعضها بعضا.(ذراني) اتركاني(فإنهم الزناة) قال في الفتح مناسبة العري لهم لاستحقاقهم أن يفضحوا لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة فعوقبوا بالهتك.والحكمة في إتيان العذاب لهم من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى.(الفطرة) أصل الخلقة التي خلقه الله تعالى عليها قبل أن تغيره المجتمعات الآثمة والنفوس الشريرة وهذه الفطرة هي الإيمان بالله تعالى وتوحيده]

وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي:أَنَّهَا تُحْدِثُ فِي الْأَرْضِ أَنْوَاعًا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْمِيَاهِ وَالْهَوَاءِ،وَالزَّرْعِ،وَالثِّمَارِ،وَالْمَسَاكِنِ،قَالَ تَعَالَى:{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[سُورَةُ الرُّومِ:٤١][١٤٩].

عَنْ مُجَاهِدٍ:" {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ} [البقرة:٢٠٥] الْآيَةَ،قَالَ:إِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ بِالْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ،فَيَحْبِسُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْقَطْرَ،فَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ،وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.قَالَ:ثُمَّ قَرَأَ مُجَاهِدٌ:{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم:٤١] قَالَ:ثُمَّ قَالَ:أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بَحْرُكُمْ هَذَا،وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ جَارٍ فَهُوَ بَحْرٌ "[١٥٠].

---

[١٤٩] – ظَهَرَ الفَسَادُ فِي العَالَمِ بالفتَنِ والحُروبِ والاضْطِرابَات..وذَلكَ بِسَبَبِ مَا اقتَرَفَهَ النَّاسُ منَ الظُّلمِ،وانتهَاكِ الحُرُمَات،والتَّنَكُّرِ للدِّينِ،وَنسيَانِ يومِ الحِسَابِ فانْطَلَقَت النُّفُوسُ مِنْ عِقَالِها،وعَاثَتْ فِي الأَرضِ فَسَاداً بِلاَ وَازِعٍ وَلا رَقيبٍ مِنْ ضَميرٍ أَوْ وُجدَانٍ أو حَيَاءٍ أَو حِسَابٍ لدينٍ،فأَذَاقَهُم اللهُ جزاءَ بعضِ ما عَمِلُوا مِنَ المَعَاصِي والآثَامِ،لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إلى الحَقِّ،وَيَكُفُّونَ عَنِ الضَّلالِ والغِوايةِ،وَيَتَذَكَّرُونَ يومَ الحِسَابِ.أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٣٣١،بترقيم الشاملة آليا)

[١٥٠] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٥٨٣) صحيح مقطوع

قال الطبري :" وَالَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ،وَإِنْ كَانَ مَذْهَبًا مِنَ التَّأْوِيلِ تَحْتَمِلُهُ الْآيَةُ،فَإِنَّ الَّذِي هُوَ أَشْبَهُ بِظَاهِرِ التَّنْزِيلِ مِنَ التَّأْوِيلِ مَا ذَكَرْنَا عَنِ السُّدِّيِّ،فَلِذَلِكَ اخْتَرْنَاهُ.وَأَمَّا الْحَرْثُ،فَإِنَّهُ الزَّرْعُ،وَالنَّسْلُ: الْعَقِبُ،وَالْوَلَدُ وَإِهْلَاكُهُ الزَّرْعَ: إِحْرَاقُهُ.وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَانَ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ،باحْتِبَاسِ الْقَطْرِ مِنْ أَجْلِ مَعْصِيَتِهِ رَبَّهُ وَسَعْيِهِ بِالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ،وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كَانَ بِقَتْلِهِ الْقَوَّامَ بِهِ،وَالْمُتَعَاهِدِينَ لَهُ حَتَّى [ص:٥٨٤] فَسَدَ فَهَلَكَ.وَكَذَلِكَ جَائِزٌ فِي مَعْنَى إِهْلَاكِهِ النَّسْلَ أَنْ يَكُونَ كَانَ بِقَتْلِهِ أُمَّهَاتِهِ أَوْ آبَاءَهُ الَّتِي مِنْهَا يَكُونُ النَّسْلُ،فَيَكُونُ فِي قَتْلِهِ الْآبَاءَ وَالْأُمَّهَاتِ انْقِطَاعُ نَسْلِهِمَا.وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ،غَيْرِ أَنَّ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ تَحْتَمِلُهُ الْآيَةُ فَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِظَاهِرِهَا مَا قَالَهُ السُّدِّيُّ،غَيْرَ أَنَّ السُّدِّيَّ،ذَكَرَ أَنَّ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي قَتْلِهِ حُمُرَ الْقَوْمِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِحْرَاقِهِ زَرْعًا لَهُمْ.وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ،فَغَيْرُ فَاسِدٍ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِيهِ،وَالْمُرَادُ بِهَا كُلُّ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُ فِي قَتْلِ كُلِّ مَا قُتِلَ مِنَ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا يَحِلُّ قَتْلُهُ بِحَالٍ وَالَّذِي يَحِلُّ قَتْلُهُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ إِذَا قَتَلَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ،بَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ عِنْدِي،لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يُخَصِّصْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا دُونَ شَيْءٍ بَلْ عَمَّهُ.وَبِالَّذِي قُلْنَا فِي عُمُومِ ذَلِكَ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ..."

وعَنْ عِكْرِمَةَ،" {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الروم:٤١] .قَالَ:أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ بَحْرُكُمْ هَذَا،وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ جَارٍ "[١٥١].

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ " {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي [ص:٥١١] الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [الروم:٤١] قَالَ:هَذَا قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ،امْتَلَأَتْ ضَلَالَةً وَظُلْمًا،فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ،رَجَعَ رَاجِعُونَ مِنَ النَّاسِ "قَوْلُهُ:{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الروم:٤١] أَمَّا الْبَرُّ فَأَهْلُ الْعَمُودِ،وَأَمَّا الْبَحْرُ فَأَهْلُ الْقُرَى وَالرِّيفِ.[١٥٢]

قُلْتُ:وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمَاءَ الْعَذْبَ بَحْرًا،فَقَالَ:{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [سُورَةُ فَاطِرٍ:١٢] .

وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ بَحْرٌ حُلْوٌ وَاقِفٌ،وَإِنَّمَا هِيَ الْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ،وَالْبَحْرُ الْمَالِحُ هُوَ السَّاكِنُ،فَسَمَّى الْقُرَى الَّتِي عَلَيْهَا الْمِيَاهُ الْجَارِيَةُ بِاسْمِ تِلْكَ الْمِيَاهِ.

قَالَ ابْنُ زَيْدٍ،فِي قَوْلِهِ " {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الروم:٤١] قَالَ:الذُّنُوبُ،وَقَرَأَ {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم:٤١] "[١٥٣].

قُلْتُ:أَرَادَ أَنَّ الذُّنُوبَ سَبَبُ الْفَسَادِ الَّذِي ظَهَرَ،وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْفَسَادَ الَّذِي ظَهَرَ هُوَ الذُّنُوبُ نَفْسُهَا فَتَكُونُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ:{لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} لَامَ الْعَاقِبَةِ وَالتَّعْلِيلِ،وَعَلَى الْأَوَّلِ فَالْمُرَادُ بِالْفَسَادِ:النَّقْصُ وَالشَّرُّ وَالْآلَامُ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ مَعَاصِي الْعِبَادِ،فَكُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُمْ عُقُوبَةً،كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:كُلَّمَا أَحْدَثْتُمْ ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ سُلْطَانِهِ عُقُوبَةً.

وَالظَّاهِرُ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – أَنَّ الْفَسَادَ الْمُرَادَ بِهِ الذُّنُوبُ وَمُوجِبَاتُهَا،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} فَهَذَا حَالُنَا،وَإِنَّمَا أَذَاقَنَا الشَّيْءَ الْيَسِيرَ مِنْ أَعْمَالِنَا،وَلَوْ أَذَاقَنَا كُلَّ أَعْمَالِنَا لَمَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ.

---

[١٥١] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٥١٠) صحيح مقطوع

[١٥٢] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٥١١) صحيح

[١٥٣] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٥١١)

الْمَعَاصِي سَبَبُ الْخَسْفِ وَالزَّلَازِلِ

وَمِنْ تَأْثِيرِ مَعَاصِي اللَّهِ فِي الْأَرْضِ مَا يَحِلُّ بِهَا مِنَ الْخَسْفِ وَالزَّلَازِلِ،وَيَمْحَقُ بَرَكَتَهَا،وَقَدْ «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى دِيَارِ ثَمُودَ،فَمَنَعَهُمْ مِنْ دُخُولِ دِيَارِهِمْ إِلَّا وَهُمْ بَاكُونَ،وَمِنْ شُرْبِ مِيَاهِهِمْ،وَمِنَ الِاسْتِسْقَاءِ مِنْ آبَارِهِمْ،حَتَّى أَمَرَ أَنْ لَا يُعْلَفَ الْعَجِينُ الَّذِي عُجِنَ بِمِيَاهِهِمْ لِلنَّوَاضِحِ،لِتَأْثِيرِ شُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ فِي الْمَاءِ،» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِ الْحِجْرِ:«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ،إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ،فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ،أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»[١٥٤]

وَكَذَلِكَ شُؤْمِ تَأْثِيرِ الذُّنُوبِ فِي نَقْصِ الثِّمَارِ وَمَا تَرَى بِهِ مِنَ الْآفَاتِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ فِي ضِمْنِ حَدِيثٍ قَالَ:وُجِدَتْ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ،حِنْطَةٌ،الْحَبَّةُ بِقَدْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ،وَهِيَ فِي صُرَّةٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا:كَانَ هَذَا يَنْبُتُ فِي زَمَنٍ مِنَ الْعَدْلِ،[١٥٥] وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ أَحْدَثَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا أَحْدَثَ الْعِبَادُ مِنَ الذُّنُوبِ.

وَأَخْبَرَنِي جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِ الصَّحْرَاءِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْهَدُونَ الثِّمَارَ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْآنَ،وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُهَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا،وَإِنَّمَا حَدَثَتْ مِنْ قُرْبٍ.

تَأْثِيرُ الذُّنُوبِ فِي الصُّوَرِ

وَأَمَّا تَأْثِيرُ الذُّنُوبِ فِي الصُّوَرِ وَالْخَلْقِ،فَقَدْ جاْء عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:" خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا،ثُمَّ قَالَ:اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ،فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ،تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ،فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ،فَقَالُوا:السَّلَامُ

---

[١٥٤] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٥)٣٨ - (٢٩٨٠) - زيادة مني

[ش (لأصحاب الحجر) أي في شأنهم وكان هذا في غزوة تبوك (أن يصيبكم) أي خشية أن يصيبكم أو حذر أن يصيبكم]

[١٥٥] - لم أجد هذا الحديث لا في مسند أحمد ولا غيره

عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّه،فَزَادُوهُ:وَرَحْمَةُ اللَّه،فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ،فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ ".[١٥٦]

فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنَ الظَّلَمَةِ وَالْخَوَنَةِ وَالْفَجَرَةِ،يُخْرِجُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِه مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّه - ﷺ - فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا[١٥٧]،وَيَقْتُلُ الْمَسِيحُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى،وَيُقِيمُ الدِّينَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِه رَسُولَهُ،وَتُخْرِجَ الْأَرْضُ بَرَكَاتِهَا،[١٥٨] وَتَعُودُ كَمَا كَانَتْ،[١٥٩] حَتَّى إِنَّ الْعِصَابَةَ مِنَ النَّاسِ لَيَأْكُلُونَ الرُّمَّانَةَ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا،وَيَكُونُ الْعُنْقُودُ مِنَ الْعِنَبِ وَقْرَ بَعِيرٍ،وَلَبَنُ اللِّقْحَةِ الْوَاحِدَةِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ،[١٦٠] وَهَذِه لِأَنَّ الْأَرْضَ لَمَّا طَهُرَتْ مِنَ الْمَعَاصِي ظَهَرَتْ فِيهَا آثَارُ الْبَرَكَةِ مِنَ اللَّه تَعَالَى الَّتِي مَحَقَتْهَا الذُّنُوبُ وَالْكُفْرُ،وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بَقِيَتْ آثَارُهَا سَارِيَةً فِي الْأَرْضِ تَطْلُبُ مَا يُشَاكِلُهَا مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ آثَارُ تِلْكَ الْجَرَائِمِ الَّتِي عُذِّبَتْ بِهَا الْأُمَمُ،فَهَذِه الْآثَارُ فِي الْأَرْضِ مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ،كَمَا أَنَّ هَذِه الْمَعَاصِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْجَرَائِمِ،فَتَنَاسَبَتْ كَلِمَةُ اللَّه وَحُكْمُهُ الْكَوْنِيُّ أَوَّلًا وَآخِرًا،وَكَانَ الْعَظِيمُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِلْعَظِيمِ مِنَ الْجِنَايَةِ،وَالْأَخَفُّ لِلْأَخَفِّ،وَهَكَذَا يَحْكُمُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ خَلْقِه فِي دَارِ الْبَرْزَخِ وَدَارِ الْجَزَاءِ.

وَتَأَمَّلْ مُقَارَنَةَ الشَّيْطَانِ وَمَحَلَّهُ وَدَارَهُ،فَإِنَّهُ لَمَّا قَارَنَ الْعَبْدَ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ عُمُرِه،وَعَمَلِه،وَقَوْلِه،وَرِزْقِه،وَلَمَّا أَثَّرَتْ طَاعَتُهُ فِي الْأَرْضِ مَا أَثَّرَتْ،وَنُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ كُلِّ مَحَلٍّ ظَهَرَتْ فِيهِ طَاعَتُهُ،وَكَذَلِكَ مَسْكَنُهُ لَمَّا كَانَ الْجَحِيمَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنَ الرُّوحِ وَالرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ.

---

[١٥٦] - صحيح البخاري (٤/ ١٣١)(٣٣٢٦)

[ش (تحيتك) أي ما يحيونك به هو تحيتك وتحية ذريتك من بعدك.(على صورة آدم) على هيئته في الطول والحسن والجمال والسلامة من النقائص والعيوب.(ينقص) من حيث الطول واستقر على القدر المألوف الآن]

[١٥٧] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٤/ ٩٦)(١١٣٢٦) ١١٣٤٦ صحيح

[١٥٨] - صحيح البخاري (٣/ ٨٢)(٢٢٢٢) وصحيح مسلم (١/ ١٣٥)٢٤٢ - (١٥٥)

[١٥٩] - صحيح مسلم (٢/ ٧٠١)٦٠ - (١٥٧)

[١٦٠] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٠)١١٠ - (٢٩٣٧)

الذُّنُوبُ تُطْفِئُ الْغَيْرَةَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ:أَنَّهَا تُطْفِئُ مِنَ الْقَلْبِ نَارَ الْغَيْرَةِ الَّتِي هِيَ لِحَيَاتِهِ وَصَلَاحِهِ كَالْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ لِحَيَاةِ جَمِيعِ الْبَدَنِ،فَالْغَيْرَةُ حَرَارَتُهُ وَنَارُهُ الَّتِي تُخْرِجُ مَا فِيهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ،كَمَا يُخْرِجُ الْكِيرُ خُبْثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ،وَأَشْرَفُ النَّاسِ وَأَعْلَاهُمْ هِمَّةً أَشَدُّهُمْ غَيْرَةً عَلَى نَفْسِهِ وَخَاصَّتِهِ وَعُمُومِ النَّاسِ،وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَغْيَرَ الْخَلْقِ عَلَى الْأُمَّةِ،وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَشَدُّ غَيْرَةً مِنْهُ،كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ الْمُغِيرَةِ،قَالَ:قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ:لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ،فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ:«أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ،لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ،وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي» [١٦١].

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ،أَنَّهَا قَالَتْ:خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ،فَقَامَ،فَأَطَالَ الْقِيَامَ،ثُمَّ رَكَعَ،فَأَطَالَ الرُّكُوعَ،ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ،ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ،ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ،ثُمَّ فَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْأُولَى،ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ انْجَلَتِ الشَّمْسُ،فَخَطَبَ النَّاسَ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ،لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ،فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ،فَادْعُوا اللَّهَ،وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا»

ثُمَّ قَالَ:«يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ،يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» [١٦٢].

---

[١٦١] - صحيح البخاري (٨/ ١٧٣)(٦٨٤٦) وصحيح مسلم (٢/ ١١٣٦)١٧ - (١٤٩٩)

[ش (غير مصفح) ضربته بحد السيف لا بصفحه وهو عرضه (أتعجبون) أترون أن غيرته شديدة تثير العجب.والغيرة ما يحمل على المنع من النظر ونحوه لأجنبي وغيرة الله تعالى ورسوله ﷺ منعهما عن المعاصي]

[١٦٢] - صحيح البخاري (٢/ ٣٤)(١٠٤٤) وصحيح مسلم (٢/ ٦١٨)١ - (٩٠١)

[ش(أمته) المرأة المملوكة.(ما أعلم) من عظمة الله تعالى وشدة عقابه وانتقامه من أهل المعاصي وما أعلم من أحوال يوم القيامة]

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْ أَبِي وَائِلٍ،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ:قُلْتُ:أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ:نَعَمْ - وَرَفَعَهُ،قَالَ:«لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ،فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللَّهِ فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ»[١٦٣].

فَجَمَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ الْغَيْرَةِ الَّتِي أَصْلُهَا كَرَاهَةُ الْقَبَائِحِ وَبُغْضُهَا،وَبَيْنَ مَحَبَّةِ الْعُذْرِ الَّذِي يُوجِبُ كَمَالَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ،وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ - مَعَ شِدَّةِ غَيْرَتِهِ - يُحِبُّ أَنْ يَعْتَذِرَ إِلَيْهِ عَبْدُهُ،وَيَقْبَلُ عُذْرَ مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ،وَأَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ عَبِيدَهُ بِارْتِكَابِ مَا يَغَارُ مِنَ ارْتِكَابِهِ حَتَّى يَعْذُرَ إِلَيْهِمْ،وَلِأَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ إِعْذَارًا وَإِنْذَارًا،وَهَذَا غَايَةُ الْمَجْدِ وَالْإِحْسَانِ،وَنِهَايَةُ الْكَمَالِ.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ تَشْتَدُّ غَيْرَتُهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ تَحْمِلُهُ شِدَّةُ الْغَيْرَةِ عَلَى سُرْعَةِ الْإِيقَاعِ وَالْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ إِعْذَارٍ مِنْهُ،وَمِنْ غَيْرِ قَبُولِ لِعُذْرِ مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ،بَلْ يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عُذْرٌ وَلَا تَدَعُهُ شِدَّةُ الْغَيْرَةِ أَنْ يَقْبَلَ عُذْرَهُ،وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَقْبَلُ الْمَعَاذِيرَ يَحْمِلُهُ عَلَى قَبُولِهَا قِلَّةُ الْغَيْرَةِ حَتَّى يَتَوَسَّعَ فِي طُرُقِ الْمَعَاذِيرِ،وَيَرَى عُذْرًا مَا لَيْسَ بِعُذْرٍ،حَتَّى يَعْتَذِرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالْقَدَرِ،وَكُلٌّ مِنْهُمَا غَيْرُ مَمْدُوحٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،أَنَّهُ قَالَ: «مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُبْغِضُ اللَّهُ وَمِنْهَا مَا يُحِبُّ اللَّهُ،وَمِنَ الْخُيَلَاءِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ،وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللَّهُ،فَالْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ الْغَيْرَةُ فِي الدِّينِ،وَالْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُ اللَّهُ الْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ دِينِهِ،وَالْخُيَلَاءُ الَّذِي يُحِبُّ اللَّهُ،اخْتِيَالُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الْقِتَالِ،وَعِنْدَ الصَّدَقَةِ،وَالِاخْتِيَالُ الَّذِي يُبْغِضُ اللَّهُ الِاخْتِيَالُ فِي الْبَاطِلِ»[١٦٤].

وَإِنَّمَا الْمَمْدُوحُ اقْتِرَانُ الْغَيْرَةِ بِالْعُذْرِ،فَيَغَارُ فِي مَحِلِّ الْغَيْرَةِ،وَيَعْذُرُ فِي مَوْضِعِ الْعُذْرِ،وَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ الْمَمْدُوحُ حَقًّا.

وَلَمَّا جَمَعَ سُبْحَانَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ كُلَّهَا كَانَ أَحَقَّ بِالْمَدْحِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ،وَلَا يَبْلُغُ أَحَدٌ أَنْ يَمْدَحَهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ،بَلْ هُوَ كَمَا مَدَحَ نَفْسَهُ وَأَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ،فَالْغَيُورُ قَدْ وَافَقَ رَبَّهُ

---

[١٦٣] - صحيح البخاري (٦/ ٥٩)(٤٦٣٧) وصحيح مسلم (٤/ ٢١١٤)٣٣ - (٢٧٦٠)

[١٦٤] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٧٧)(٤٧٦٢) حسن

سُبْحَانَهُ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ،وَمَنْ وَافَقَ اللَّهَ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ قَادَتْهُ تِلْكَ الصِّفَةُ إِلَيْهِ بِزِمَامِهِ،وَأَدْخَلَتْهُ عَلَى رَبِّهِ،وَأَدْنَتْهُ مِنْهُ،وَقَرَّبَتْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ،وَصَيَّرَتْهُ مَحْبُوبًا،فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَحِيمٌ يُحِبُّ الرُّحَمَاءَ،كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكُرَمَاءَ،عَلِيمٌ يُحِبُّ الْعُلَمَاءَ،قَوِيٌّ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ،وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ،حَتَّى يُحِبَّ أَهْلَ الْحَيَاءِ،جَمِيلٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْجَمَالِ،وَتْرٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْوَتْرِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي إِلَّا أَنَّهَا تُوجِبُ لِصَاحِبِهَا ضِدَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الِاتِّصَافِ بِهَا لَكَفَى بِهَا عُقُوبَةً،فَإِنَّ الْخَطْرَةَ تَنْقَلِبُ وَسْوَسَةً،وَالْوَسْوَسَةُ تَصِيرُ إِرَادَةً،وَالْإِرَادَةُ تَقْوَى فَتَصِيرُ عَزِيمَةً،ثُمَّ تَصِيرُ فِعْلًا،ثُمَّ تَصِيرُ صِفَةً لَازِمَةً وَهَيْئَةً ثَابِتَةً رَاسِخَةً،وَحِينَئِذٍ يَتَعَذَّرُ الْخُرُوجُ مِنْهُمَا كَمَا يَتَعَذَّرُ الْخُرُوجُ مِنْ صِفَاتِهِ الْقَائِمَةِ بِهِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ كُلَّمَا اشْتَدَّتْ مُلَابَسَتُهُ لِلذُّنُوبِ أَخْرَجَتْ مِنْ قَلْبِهِ الْغَيْرَةَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعُمُومِ النَّاسِ،وَقَدْ تَضْعُفُ فِي الْقَلْبِ جِدًّا حَتَّى لَا يَسْتَقْبِحَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَبِيحَ لَا مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ،وَإِذَا وَصَلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ فَقَدْ دَخَلَ فِي بَابِ الْهَلَاكِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى عَدَمِ الِاسْتِقْبَاحِ،بَلْ يُحَسِّنُ الْفَوَاحِشَ وَالظُّلْمَ لِغَيْرِهِ،وَيُزَيِّنُهُ لَهُ،وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ،وَيَحُثُّهُ عَلَيْهِ،وَيَسْعَى لَهُ فِي تَحْصِيلِهِ،وَلِهَذَا كَانَ الدَّيُّوثُ أَخْبَثَ خَلْقِ اللَّهِ،وَالْجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَيْهِ،وَكَذَلِكَ مُحَلِّلُ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ لِغَيْرِهِ وَمُزَيِّنُهُ لَهُ،فَانْظُرْ مَا الَّذِي حَمَلَتْ عَلَيْهِ قِلَّةُ الْغَيْرَةِ.

وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الدِّينِ الْغَيْرَةُ،وَمَنْ لَا غَيْرَةَ لَهُ لَا دِينَ لَهُ،فَالْغَيْرَةُ تَحْمِي الْقَلْبَ فَتَحْمِي لَهُ الْجَوَارِحَ،فَتَدْفَعُ السُّوءَ وَالْفَوَاحِشَ،وَعَدَمُ الْغَيْرَةِ تُمِيتُ الْقَلْبَ،فَتَمُوتُ لَهُ الْجَوَارِحُ؛ فَلَا يَبْقَى عِنْدَهَا دَفْعٌ الْبَتَّةَ.

وَمَثَلُ الْغَيْرَةِ فِي الْقَلْبِ مَثَلُ الْقُوَّةِ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَرَضَ وَتُقَاوِمُهُ،فَإِذَا ذَهَبَتِ الْقُوَّةُ وَجَدَ الدَّاءُ الْمَحِلَّ قَابِلًا،وَلَمْ يَجِدْ دَافِعًا،فَتَمَكَّنَ،فَكَانَ الْهَلَاكُ،وَمِثْلُهَا مِثْلُ صَيَاصِيِّ الْجَامُوسِ الَّتِي تَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ،فَإِذَا تَكَسَّرَتْ طَمِعَ فِيهَا عَدُوُّهُ.

الْمَعَاصِي تُذْهِبُ الْحَيَاءَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:ذَهَابُ الْحَيَاءِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ،وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ،وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الْخَيْرِ أَجْمَعِه.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ قَتَادَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا السَّوَّارِ،يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ،يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[١٦٥].

وعَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ،حَدَّثَنَا أَبُو مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى:إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ "[١٦٦]

وَفِيه تَفْسِيرَان:

أَحَدُهُمَا:أَنَّهُ عَلَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ،وَالْمَعْنَى مَنْ لَمْ يَسْتَحِ فَإِنَّهُ يَصْنَعُ مَا شَاءَ مِنَ الْقَبَائِحِ،إِذِ الْحَامِلُ عَلَى تَرْكِهَا الْحَيَاءُ،فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ حَيَاءٌ يَرْدَعُهُ عَنِ الْقَبَائِحِ،فَإِنَّهُ يُوَاقِعُهَا،وَهَذَا تَفْسِيرُ أَبِي عُبَيْدَةَ.

وَالثَّانِي:أَنَّ الْفِعْلَ إِذَا لَمْ تَسْتَحِ مِنْهُ مِنَ اللَّهِ فَافْعَلْهُ،وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُهُ هُوَ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ مِنَ اللَّهِ،وَهَذَا تَفْسِيرُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ هَانِئٍ.

فَعَلَى الْأَوَّلِ:يَكُونُ تَهْدِيدًا،كَقَوْلِه:{اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} [سُورَةُ فُصِّلَتْ:٤٠] .

وَعَلَى الثَّانِي:يَكُونُ إِذْنًا وَإِبَاحَةً.

فَإِنْ قِيلَ:فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى حَمْلِه عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ؟

قُلْتُ:لَا،وَلَا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَحْمِلُ الْمُشْتَرَكَ عَلَى جَمِيعِ مَعَانِيه،لِمَا بَيْنَ الْإِبَاحَةِ وَالتَّهْدِيدِ مِنَ الْمُنَافَاةِ،وَلَكِنَّ اعْتِبَارَ أَحَدِ الْمَعْنَيَيْنِ يُوجِبُ اعْتِبَارَ الْآخَرِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ تُضْعِفُ الْحَيَاءَ مِنَ الْعَبْدِ،حَتَّى رُبَّمَا انْسَلَخَ مِنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ،حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا لَا يَتَأَثَّرُ بِعِلْمِ النَّاسِ بِسُوءِ حَالِه وَلَا بِاطِّلَاعِهِمْ عَلَيْه،بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُخْبِرُ عَنْ حَالِه وَقُبْحِ مَا يَفْعَلُ،وَالْحَامِلُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ انْسِلَاخُهُ مِنَ الْحَيَاءِ،وَإِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ يَبْقَ فِي صَلَاحِه مَطْمَعٌ

وَإِذَا رَأَى إِبْلِيسُ طَلْعَةَ وَجْهِهِ ...حَيَّا وَقَالَ:فَدَيْتُ مَنْ لَا يُفْلِحُ

---

[١٦٥] – صحيح مسلم (١/ ٦٤)٦٠ – (٣٧)

[١٦٦] – صحيح البخاري (٨/ ٢٩)(٦١٢٠)

وَالْحَيَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَيَاةِ،وَالْغَيْثُ يُسَمَّى حَيَا - بِالْقَصْرِ - لِأَنَّ بِهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ وَالنَّبَاتِ وَالدَّوَابِّ،وَكَذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالْحَيَاءِ حَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،فَمَنْ لَا حَيَاءَ فِيهِ فَهُوَ مَيِّتٌ فِي الدُّنْيَا شَقِيٌّ فِي الْآخِرَةِ،وَبَيْنَ الذُّنُوبِ وَبَيْنَ قِلَّةِ الْحَيَاءِ وَعَدَمِ الْغَيْرَةِ تَلَازُمٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ،وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَسْتَدْعِي الْآخَرَ وَيَطْلُبُهُ حَثِيثًا،وَمَنِ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ،اسْتَحَى اللَّهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ،وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ لَمْ يَسْتَحِ اللَّهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ.

الْمَعَاصِي تُضْعِفُ فِي الْقَلْبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ:أَنَّهَا تُضْعِفُ فِي الْقَلْبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ،وَتُضْعِفُ وَقَارَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَلَا بُدَّ،شَاءَ أَمْ أَبَى،وَلَوْ تَمَكَّنَ وَقَارُ اللَّهِ وَعَظَمَتُهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ لَمَا تَجَرَّأَ عَلَى مَعَاصِيهِ،وَرُبَّمَا اغْتَرَّ الْمُغْتَرُّ،وَقَالَ:إِنَّمَا يَحْمِلُنِي عَلَى الْمَعَاصِي حُسْنُ الرَّجَاءِ،وَطَمَعِي فِي عَفْوِهِ،لَا ضَعْفُ عَظْمَتِهِ فِي قَلْبِي،وَهَذَا مِنْ مُغَالَطَةِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ عَظَمَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَجَلَالَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ تَقْتَضِي تَعْظِيمَ حُرُمَاتِهِ،وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِهِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الذُّنُوبِ،وَالْمُتَجَرِّئُونَ عَلَى مَعَاصِيهِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ،وَكَيْفَ يَقْدُرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ،أَوْ يُعَظِّمُهُ وَيُكَبِّرُهُ،وَيَرْجُو وَقَارَهُ وَيُجِلُّهُ،مَنْ يَهُونُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ؟ هَذَا مِنْ أَمْحَلِ الْمُحَالِ،وَأَبْيَنِ الْبَاطِلِ،وَكَفَى بِالْعَاصِي عُقُوبَةً أَنْ يَضْمَحِلَّ مِنْ قَلْبِهِ تَعْظِيمُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ،وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِهِ،وَيَهُونُ عَلَيْهِ حَقُّهُ.

وَمِنْ بَعْضِ عُقُوبَةِ هَذَا:أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَهَابَتَهُ مِنْ قُلُوبِ الْخَلْقِ،وَيَهُونُ عَلَيْهِمْ،وَيَسْتَخِفُّونَ بِهِ،كَمَا هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَاسْتَخَفَّ بِهِ،فَعَلَى قَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ يُحِبُّهُ النَّاسُ،وَعَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنَ اللَّهِ يَخَافُهُ الْخَلْقُ،وَعَلَى قَدْرِ تَعْظِيمِهِ لِلَّهِ وَحُرُمَاتِهِ يُعَظِّمُهُ النَّاسُ،وَكَيْفَ يَنْتَهِكُ عَبْدٌ حُرُمَاتِ اللَّهِ،وَيَطْمَعُ أَنْ لَا يَنْتَهِكَ النَّاسُ حُرُمَاتِهِ أَمْ كَيْفَ يَهُونُ عَلَيْهِ حَقُّ اللَّهِ وَلَا يُهَوِّنُهُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ؟ أَمْ كَيْفَ يَسْتَخِفُّ بِمَعَاصِي اللَّهِ وَلَا يَسْتَخِفُّ بِهِ الْخَلْقُ؟

وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى هَذَا فِي كِتَابِهِ عِنْدَ ذِكْرِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ،وَأَنَّهُ أَرْكَسَ أَرْبَابَهَا بِمَا كَسَبُوا،وَغَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ،وَطَبَعَ عَلَيْهَا بِذُنُوبِهِمْ،وَأَنَّهُ نَسِيَهُمْ كَمَا نَسُوهُ،وَأَهَانَهُمْ كَمَا أَهَانُوا دِينَهُ،وَضَيَّعَهُمْ كَمَا ضَيَّعُوا أَمْرَهُ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ سُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ:{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [سُورَةُ الْحَجِّ:١٨] فَإِنَّهُمْ لَمَّا هَانَ عَلَيْهِمُ السُّجُودُ لَهُ وَاسْتَخَفُّوا بِهِ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ أَهَانَهُمُ اللَّهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ مُكْرِمٍ بَعْدَ أَنْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ،وَمَنْ ذَا يُكْرِمْ مَنْ أَهَانَهُ اللَّهُ؟ أَوْ يُهِنْ مَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ؟

الْمَعَاصِي تُنْسِي اللَّهَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تَسْتَدْعِي نِسْيَانَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ،وَتَرْكَهُ وَتَخْلِيَتَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَشَيْطَانِهِ،وَهُنَالِكَ الْهَلَاكُ الَّذِي لَا يُرْجَى مَعَهُ نَجَاةٌ،قَالَ اللَّهُ:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سُورَةُ الْحَشْرِ:١٨ - ١٩] .

فَأَمَرَ بِتَقْوَاهُ وَنَهَى أَنْ يَتَشَبَّهَ عِبَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَنْ نَسِيَهُ بِتَرْكِ تَقْوَاهُ،وَأَخْبَرَ أَنَّهُ عَاقَبَ مَنْ تَرَكَ التَّقْوَى بِأَنْ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ،أَيْ أَنْسَاهُ مَصَالِحَهَا،وَمَا يُنْجِيهَا مِنْ عَذَابِهِ،وَمَا يُوجِبُ لَهُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ،وَكَمَالَ لَذَّتِهَا وَسُرُورِهَا وَنَعِيمِهَا،فَأَنْسَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ جَزَاءً لِمَا نَسِيَهُ مِنْ عَظَمَتِهِ وَخَوْفِهِ،وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ،فَتَرَى الْعَاصِيَ مُهْمِلًا لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ مُضَيِّعًا لَهَا،قَدْ أَغْفَلَ اللَّهُ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ،وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا،قَدِ انْفَرَطَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ،وَقَدْ فَرَّطَ فِي سَعَادَتِهِ الْأَبَدِيَّةِ،وَاسْتَبْدَلَ بِهَا أَدْنَى مَا يَكُونُ مِنْ لَذَّةٍ،إِنَّمَا هِيَ سَحَابَةُ صَيْفٍ،أَوْ خَيَالُ طَيْفٍ كَمَا قِيلَ:

أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ...إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ[١٦٧]

---

[١٦٧] - البصائر والذخائر (٣/ ٦٣) والكشكول (٢/ ٢٤) وثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص: ٦٧١) وشرح لامية العجم للدميري (ص: ١٢١) ومجاني الأدب في حدائق العرب (٢/ ٢٨)

وَأَعْظَمُ الْعُقُوبَاتِ نِسْيَانُ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ،وَإِهْمَالُهُ لَهَا،وَإِضَاعَتُهُ حَظَّهَا وَنَصِيبَهَا مِنَ اللَّهِ،وَبَيْعُهَا ذَلِكَ بِالْغَبْنِ وَالْهَوَانِ وَأَبْخَسِ الثَّمَنِ،فَضَيَّعَ مَنْ لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ،وَلَا عِوَضَ لَهُ مِنْهُ،وَاسْتَبْدَلَ بِهِ مَنْ عَنْهُ كُلُّ الْغِنَى أَوْ مِنْهُ كُلُّ الْعِوَضِ:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ ...وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعْتَ مِنْ عِوَضِ

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُعَوِّضُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا سِوَاهُ وَلَا يُعَوِّضُ مِنْهُ شَيْءٌ،وَيُغْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْءٌ،وَيُجِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُجِيرُ مِنْهُ شَيْءٌ،وَيَمْنَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يَمْنَعُ مِنْهُ شَيْءٌ،كَيْفَ يَسْتَغْنِي الْعَبْدُ عَنْ طَاعَةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؟ وَكَيْفَ يَنْسَى ذِكْرَهُ وَيُضَيِّعُ أَمْرَهُ حَتَّى يُنْسِيَهُ نَفْسَهُ،فَيَخْسَرُهَا وَيَظْلِمُهَا أَعْظَمَ الظُّلْمِ؟ فَمَا ظَلَمَ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَلَكِنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ،وَمَا ظَلَمَهُ رَبُّهُ وَلَكِنْ هُوَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ.

الْمَعَاصِي تُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ وَتَمْنَعُهُ مِنْ ثَوَابِ الْمُحْسِنِينَ،فَإِنَّ الْإِحْسَانَ إِذَا بَاشَرَ الْقَلْبَ مَنَعَهُ عَنِ الْمَعَاصِي،فَإِنَّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ،لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ إِلَّا لِاسْتِيلَاءِ ذِكْرِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ عَلَى قَلْبِهِ،بِحَيْثُ يَصِيرُ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ،وَذَلِكَ سَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِرَادَةِ الْمَعْصِيَةِ،فَضْلًا عَنْ مُوَاقَعَتِهَا،فَإِذَا خَرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ،فَاتَهُ صُحْبَةُ رُفْقَتِهِ الْخَاصَّةِ،وَعَيْشُهُمُ الْهَنِيءُ،وَنَعِيمُهُمُ التَّامُّ،فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا أَقَرَّهُ فِي دَائِرَةِ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ،فَإِنْ عَصَاهُ بِالْمَعَاصِي الَّتِي تُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ:«لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً،يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[١٦٨] فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ،وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ.

---

[١٦٨] – صحيح البخاري (٣/ ١٣٦)(٢٤٧٥) وصحيح مسلم (١/ ٧٦)١٠٠ – (٥٧)

[ش (حين يزني) يقدم على الزنا ويباشره.(وهو مؤمن) ونور الإيمان في قلبه بل ينزع منه فإذا استمر على الفعل أو استحله زال إيمانه وكفر.(يرفع الناس إليه فيها أبصارهم) أي ذات قيمة تستتبع أنظار الناس وتجعلهم يطلبونها.(الفربري..) أحد الرواة عن البخاري.(أبو جعفر) هو وراق البخاري أي كاتبه.(أبو عبد الله) هو البخاري نفسه]

الْعَاصِي يَفُوتُهُ ثَوَابُ الْمُؤْمِنِينَ

وَمَنْ فَاتَهُ رُفْقَةُ الْمُؤْمِنِينَ،وَحُسْنُ دِفَاعِ اللَّهِ عَنْهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا،وَفَاتَهُ كُلُّ خَيْرٍ رَتَّبَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْإِيمَانِ،وَهُوَ نَحْوُ مِائَةِ خَصْلَةٍ،كُلُّ خَصْلَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

فَمِنْهَا:الْأَجْرُ الْعَظِيمُ:{وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [سُورَةُ النِّسَاءِ:١٤٦] .

وَمِنْهَا:الدَّفْعُ عَنْهُمْ شُرُورَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [سُورَةُ الْحَجِّ:٣٨] .

وَمِنْهَا:اسْتِغْفَارُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ لَهُمُ:{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} [سُورَةُ غَافِرٍ:٧] .

وَمِنْهَا:مُوَالَاةُ اللَّهِ لَهُمْ،وَلَا يَذِلُّ مَنْ وَالَاهُ اللَّهُ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} [سُورَةُ الْبَقَرَةِ:٢٥٧] .

وَمِنْهَا:أَمْرُهُ مَلَائِكَتَهُ بِتَثْبِيتِهِمْ:{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [سُورَةُ الْأَنْفَالِ:١٢] .

وَمِنْهَا:أَنَّ لَهُمُ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ.

وَمِنْهَا:الْعِزَّةُ:{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ:٨] .

وَمِنْهَا:مَعِيَّةُ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ:{وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [سُورَةُ الْأَنْفَالِ:١٩] .

وَمِنْهَا:الرِّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ:١١] .

وَمِنْهَا:إِعْطَاؤُهُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَإِعْطَاؤُهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ وَمَغْفِرَةُ ذُنُوبِهِمْ.

وَمِنْهَا:الْوُدُّ الَّذِي يَجْعَلُهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ،وَهُوَ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَى مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

وَمِنْهَا:أَمَانُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ يَوْمَ يَشْتَدُّ الْخَوْفُ:{فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سُورَةُ الْأَنْعَامِ:٤٨] .

وَمِنْهَا:أَنَّهُمُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِيَنَا إِلَى صِرَاطِهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً.

وَمِنْهَا:أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ هُدًى لَهُمْ وَشِفَاءٌ:

{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سُورَةُ فُصِّلَتْ:٤٤] .

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْإِيمَانَ سَبَبٌ جَالِبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ،وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ الْإِيمَانُ،وَكُلُّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ عَدَمُ الْإِيمَانِ،فَكَيْفَ يَهُونُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَرْتَكِبَ شَيْئًا يُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ،وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ،وَلَكِنْ لَا يَخْرُجُ مِنْ دَائِرَةِ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنِ اسْتَمَرَّ عَلَى الذُّنُوبِ وَأَصَرَّ عَلَيْهَا خِيفَ عَلَيْهِ أَنْ يَرِينَ عَلَى قَلْبِهِ،فَيُخْرِجُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ،وَمِنْ هَاهُنَا اشْتَدَّ خَوْفُ السَّلَفِ،كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:أَنْتُمْ تَخَافُونَ الذُّنُوبَ،وَأَنَا أَخَافُ الْكُفْرَ.

الْمَعَاصِي تُضْعِفُ الْقَلْبَ

وَمِنْ عُقُوبَتِهَا:أَنَّهَا تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ،أَوْ تَعُوقُهُ أَوْ تُوقِفُهُ وَتَقْطَعُهُ عَنِ السَّيْرِ،فَلَا تَدَعُهُ يَخْطُو إِلَى اللَّهِ خُطْوَةً،هَذَا إِنْ لَمْ تَرُدَّهُ عَنْ وُجْهَتِهِ إِلَى وَرَائِهِ،فَالذَّنْبُ يَحْجُبُ الْوَاصِلَ،وَيَقْطَعُ السَّائِرَ،وَيُنَكِّسُ الطَّالِبَ،وَالْقَلْبُ إِنَّمَا يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بِقُوَّتِهِ،فَإِذَا مَرِضَ بِالذُّنُوبِ ضَعُفَتْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تُسَيِّرُهُ،فَإِنْ زَالَتْ بِالْكُلِّيَّةِ انْقَطَعَ عَنِ اللَّهِ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَالذَّنْبُ إِمَّا يُمِيتُ الْقَلْبَ،أَوْ يُمْرِضُهُ مَرَضًا مُخَوِّفًا،أَوْ يُضْعِفُ قُوَّتَهُ وَلَا بُدَّ حَتَّى يَنْتَهِيَ ضَعْفُهُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الثَّمَانِيَةِ الَّتِي اسْتَعَاذَ مِنْهَا النَّبِيُّ - ﷺ - فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:كَانَ

النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ،وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ،وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ،وَضَلَعِ الدَّيْنِ،وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»[١٦٩]

وَكُلُّ اثْنَيْنِ مِنْهَا قَرِينَان.

فَالْهَمُّ وَالْحَزَنُ قَرِينَان:فَإِنَّ الْمَكْرُوهَ الْوَارِدَ عَلَى الْقَلْبِ إِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ يَتَوَقَّعُهُ أَحْدَثَ الْهَمَّ،وَإِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مَاضٍ قَدْ وَقَعَ أَحْدَثَ الْحَزَنَ.

وَالْعَجْزُ وَالْكَسَلُ قَرِينَان:فَإِنْ تَخَلَّفَ الْعَبْدُ عَنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ،إِنْ كَانَ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ فَهُوَ الْعَجْزُ،وَإِنْ كَانَ لِعَدَمِ إِرَادَتِهِ فَهُوَ الْكَسَلُ.

وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ قَرِينَان:فَإِنَّ عَدَمَ النَّفْعِ مِنْهُ إِنْ كَانَ بِبَدَنِهِ فَهُوَ الْجُبْنُ،وَإِنْ كَانَ بِمَالِهِ فَهُوَ الْبُخْلُ.

وَضَلَعُ الدَّيْنِ وَقَهْرُ الرِّجَالِ قَرِينَان:فَإِنَّ اسْتِعْلَاءَ الْغَيْرِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِحَقٍّ فَهُوَ مِنْ ضَلَعِ الدَّيْنِ،وَإِنْ كَانَ بِبَاطِلٍ فَهُوَ مِنْ قَهْرِ الرِّجَالِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِهَذِهِ الثَّمَانِيَةِ،كَمَا أَنَّهَا مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِجَهْدِ الْبَلَاءِ،وَدَرَكِ الشَّقَاءِ،وَسُوءِ الْقَضَاءِ،وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ،وَمِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِزَوَالِ نِعَمِ اللَّهِ،وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِهِ إِلَى نِقْمَتِهِ وَتَجْلِبُ جَمِيعَ سُخْطِهِ.

الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ:أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ،وَتُحِلُّ النِّقَمَ،فَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ،وَلَا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ،كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:مَا نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ،وَلَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ[١٧٠].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [سُورَةُ الشُّورَى:٣٠] .

---

[١٦٩] – صحيح البخاري (٨/ ٧٩)(٦٣٦٩) [ش (ضلع الدين) ثقله وشدته]

[١٧٠] – المجالسة وجواهر العلم (٣/ ١٠٢)(٧٢٧) وفتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٢/ ٤٩٧) والجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة (٢/ ١٤) وهو منسوب للعباس وليس لعلي رضي الله عنهما

وَقَالَ تَعَالَى:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [سُورَةُ الْأَنْفَالِ:٥٣] .

فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعَمَهُ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ مَا بِنَفْسِهِ،فَيُغَيِّرُ طَاعَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ،وَشُكْرَهُ بِكُفْرِهِ،وَأَسْبَابَ رِضَاهُ بِأَسْبَابِ سُخْطِهِ،فَإِذَا غَيَّرَ غَيَّرَ عَلَيْهِ،جَزَاءً وِفَاقًا،وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

فَإِنْ غَيَّرَ الْمَعْصِيَةَ بِالطَّاعَةِ،غَيَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ بِالْعَافِيَةِ،وَالذُّلَّ بِالْعِزِّ.

وَقَالَ تَعَالَى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [سُورَةُ الرَّعْدِ:١١] .

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ الْإِلَهِيَّةِ،وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ:دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ،وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ،عَلَى الْمِنْبَرِ،وَهُوَ يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،أَنْ قُلْ لِأَهْلِ طَاعَتِي مِنْ أُمَّتِكَ:لَا يَتَّكِلُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ،فَإِنَّنِي لَا أَقَاصُّ عَبْدًا الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،ثُمَّ أَشَاءُ أَنْ أُعَذِّبَهُ إِلَّا عَذَّبْتُهُ،وَقُلْ لِأَهْلِ الْمَعَاصِي مِنْ أُمَّتِكَ:لَا يُلْقُونَ بِأَيْدِيهِمْ فَإِنِّي أَغْفِرُ الذُّنُوبَ الْعِظَامَ وَلَا أُبَالِي.وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ،وَلَا أَهْلِ مَدِينَةٍ،وَلَا أَهْلِ أَرْضٍ،وَلَا رَجُلٍ بِخَاصَّةٍ،وَلَا امْرَأَةٍ يَكُونُ لِي عَلَى مَا أُحِبُّ إِلَّا كُنْتُ لَهُ عَلَى مَا يُحِبُّ.وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَدِينَةٍ،وَلَا أَهْلِ أَرْضٍ،وَلَا رَجُلٍ بِخَاصَّةٍ،وَلَا امْرَأَةٍ يَكُونُ لِي عَلَى مَا أُحِبُّ فَأَكُونُ لَهُ عَلَى مَا يُحِبُّ ثُمَّ يَتَحَوَّلُ عَنْ مَا أُحِبُّ إِلَى مَا أَكْرَهُ إِلَّا تَحَوَّلْتُ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ إِلَى مَا يَكْرَهُ،إِلَّا كُنْتُ لَهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ،وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ،وَلَا أَهْلِ مَدِينَةٍ،وَلَا أَهْلِ أَرْضٍ،وَلَا رَجُلٍ بِخَاصَّةٍ،وَلَا امْرَأَةٍ يَكُونُ لِي عَلَى مَا أَكْرَهُ ثُمَّ يَتَحَوَّلُ لِي عَنْ مَا أَكْرَهُ إِلَى مَا أُحِبُّ إِلَّا تَحَوَّلْتُ لَهُ عَنْ مَا يَكْرَهُ إِلَى مَا يُحِبُّ.لَيْسَ مِنِّي مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ،أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ،أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ،إِنَّمَا أَنَا وَخَلْقِي،وَكُلُّ خَلْقِي لِي»[١٧١] .

وَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:[١٧٢]

---

[١٧١] – المعجم الأوسط (٥/ ١١٩)(٤٨٤٤) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ١٩٥) فيه لين

[١٧٢] – تراجم شعراء موقع أدب (١٣/ ١٢٣) وشرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد١ – ٢٠ (١٢/ ٢٦) وصيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال (١/ ٣٧٨) وموسوعة الشعر الإسلامي (١١١/ ١) وهي منسوبة لعلي رضي الله عنه

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ...فَإِنَّ الذُّنُوبَ تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحُطْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَا ...دِ فَرَبُّ الْعِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمْ
وَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْ ...تَ فَظُلْمُ الْعِبَادِ شَدِيدُ الْوَخَمْ
وَسَافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الْوَرَى ...لِتَبْصُرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمْ
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ بَعْدَهُمْ ...شُهُودٌ عَلَيْهِمْ وَلَا تَتَّهِمْ
وَمَا كَانَ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ أَضَ ...رَّ مِنَ الظُّلْمِ وَهُوَ الَّذِي قَدْ قَصَمْ
فَكَمْ تَرَكُوا مِنْ جِنَانٍ وَمِنْ ...قُصُورٍ وَأُخْرَى عَلَيْهِمْ أُطُمْ
صَلَوْا بِالْجَحِيمِ وَفَاتَ النَّعِي ...مُ وَكَانَ الَّذِي نَالَهُمْ كَالْحُلُمْ

الْمَعَاصِي تُلْقِي الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ فِي الْقُلُوبِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا مَا يُلْقِيهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ فِي قَلْبِ الْعَاصِي،فَلَا تَرَاهُ إِلَّا خَائِفًا مَرْعُوبًا.

فَإِنَّ الطَّاعَةَ حِصْنُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ،مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْآمِنِينَ مِنْ عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَمَنْ خَرَجَ عَنْهُ أَحَاطَتْ بِهِ الْمَخَاوِفُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ انْقَلَبَتِ الْمَخَاوِفُ فِي حَقِّهِ أَمَانًا،وَمَنْ عَصَاهُ انْقَلَبَتْ مَآمِنُهُ مَخَاوِفَ،فَلَا تَجِدُ الْعَاصِيَ إِلَّا وَقَلْبُهُ كَأَنَّهُ بَيْنَ جَنَاحَيْ طَائِرٍ،إِنْ حَرَّكَتِ الرِّيحُ الْبَابَ قَالَ:جَاءَ الطَّلَبُ،وَإِنْ سَمِعَ وَقْعَ قَدَمٍ خَافَ أَنْ يَكُونَ نَذِيرًا بِالْعَطَبِ،يَحْسَبُ أَنَّ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِ،وَكُلَّ مَكْرُوهٍ قَاصِدٌ إِلَيْهِ،فَمَنْ خَافَ اللَّهَ آمَنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ،وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ:

بِذَا قَضَى اللَّهُ بَيْنَ الْخَلْقِ مُذْ خُلِقُوا ...أَنَّ الْمَخَاوِفَ وَالْأَجْرَامَ فِي قَرَنِ

الْمَعَاصِي تُوقِعُ فِي الْوَحْشَةِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُوقِعُ الْوَحْشَةَ الْعَظِيمَةَ فِي الْقَلْبِ فَيَجِدُ الْمُذْنِبُ نَفْسَهُ مُسْتَوْحِشًا،قَدْ وَقَعَتِ الْوَحْشَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ،وَبَيْنَ الْخَلْقِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ،وَكُلَّمَا كَثُرَتِ الذُّنُوبُ اشْتَدَّتِ الْوَحْشَةُ،وَأَمَرُّ الْعَيْشِ عَيْشُ الْمُسْتَوْحِشِينَ الْخَائِفِينَ،وَأَطْيَبُ الْعَيْشِ عَيْشُ الْمُسْتَأْنِسِينَ،فَلَوْ

نَظَرَ الْعَاقِلُ وَوَازَنَ لَذَّةَ الْمَعْصِيَةِ وَمَا تُوقِعُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالْوَحْشَةِ،لَعَلِمَ سُوءَ حَالِه،وَعَظِيمَ غَبْنِه،إِذْ بَاعَ أُنْسَ الطَّاعَةِ وَأَمْنَهَا وَحَلَاوَتَهَا بِوَحْشَةِ الْمَعْصِيَةِ وَمَا تُوجِبُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالضَّرَرِ الدَّاعِي لَهُ.

كَمَا قِيلَ:[١٧٣]

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ ...فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ:أَنَّ الطَّاعَةَ تُوجِبُ الْقُرْبَ مِنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ،فَكُلَّمَا اشْتَدَّ الْقُرْبُ قَوِيَ الْأُنْسُ،وَالْمَعْصِيَةُ تُوجِبُ الْبُعْدَ مِنَ الرَّبِّ،وَكُلَّمَا زَادَ الْبُعْدُ قَوِيَت الْوَحْشَةُ.

وَلِهَذَا يَجِدُ الْعَبْدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ لِلْبُعْدِ الَّذِي بَيْنَهُمَا،وَإِنْ كَانَ مُلَابِسًا لَهُ،قَرِيبًا مِنْهُ،وَيَجِدُ أُنْسًا قَوِيًّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّ،وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا عَنْهُ.

وَالْوَحْشَةُ سَبَبُهَا الْحِجَابُ،وَكُلَّمَا غَلُظَ الْحِجَابُ زَادَت الْوَحْشَةُ،فَالْغَفْلَةُ تُوجِبُ الْوَحْشَةَ،وَأَشَدُّ مِنْهَا وَحْشَةُ الْمَعْصِيَةِ،وَأَشَدُّ مِنْهَا وَحْشَةُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ،وَلَا تَجِدُ أَحَدًا مُلَابِسًا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا وَيَعْلُوهُ مِنَ الْوَحْشَةِ بِحَسْبِ مَا لَابَسَهُ مِنْهُ،فَتَعْلُو الْوَحْشَةُ وَجْهَهُ وَقَلْبَهُ فَيَسْتَوْحِشُ وَيُسْتَوْحَشُ مِنْهُ.

الْمَعَاصِي تُمْرِضُ الْقُلُوبَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تَصْرِفُ الْقَلْبَ عَنْ صِحَّتِه وَاسْتِقَامَتِه إِلَى مَرَضِه وَانْحِرَافِه،فَلَا يَزَالُ مَرِيضًا مَعْلُولًا لَا يَنْتَفِعُ بِالْأَغْذِيَةِ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَصَلَاحُهُ،فَإِنَّ تَأْثِيرَ الذُّنُوبِ فِي الْقُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَبْدَانِ،بَلِ الذُّنُوبُ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَدَاؤُهَا،وَلَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا تَرْكُهَا.

وَقَدْ أَجْمَعَ السَّائِرُونَ إِلَى اللَّهِ أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تُعْطَى مُنَاهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَوْلَاهَا،وَلَا تَصِلُ إِلَى مَوْلَاهَا حَتَّى تَكُونَ صَحِيحَةً سَلِيمَةً،وَلَا تَكُونُ صَحِيحَةً سَلِيمَةً حَتَّى يَنْقَلِبَ دَاؤُهَا،فَيَصِيرَ نَفْسَ دَوَائِهَا،وَلَا يَصِحُّ لَهَا ذَلِكَ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا،فَهَوَاهَا مَرَضُهَا،وَشِفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ،فَإِنِ اسْتَحْكَمَ الْمَرَضُ قَتَلَ أَوْ كَادَ.

---

[١٧٣] – العزلة للخطابي (ص: ٣٤،بترقيم الشاملة آليا)

وَكَمَا أَنَّ مَنْ نَهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَى كَانَتِ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ،فَكَذَا يَكُونُ قَلْبُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي جَنَّةٍ عَاجِلَةٍ،لَا يُشْبِهُ نَعِيمُ أَهْلِهَا نَعِيمًا الْبَتَّةَ،بَلِ التَّفَاوُتُ الَّذِي بَيْنَ النَّعِيمَيْنِ،كَالتَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُصَدِّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ بَاشَرَ قَلْبُهُ هَذَا وَهَذَا.

وَلَا تَحْسَبُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ - وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [سُورَةُ الانْفِطَارِ:١٣ - ١٤] مَقْصُورٌ عَلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَجَحِيمِهَا فَقَطْ بَلْ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ كَذَلِكَ - أَعْنِي دَارَ الدُّنْيَا،وَدَارَ الْبَرْزَخِ،وَدَارَ الْقَرَارِ - فَهَؤُلَاءِ فِي نَعِيمٍ،وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ،وَهَلِ النَّعِيمُ إِلَّا نَعِيمُ الْقَلْبِ؟ وَهَلِ الْعَذَابُ إِلَّا عَذَابُ الْقَلْبِ؟ وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْخَوْفِ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ،وَضِيقِ الصَّدْرِ،وَإِعْرَاضِهِ عَنِ اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ،وَتَعَلُّقِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ،وَانْقِطَاعِهِ عَنِ اللَّهِ،بِكُلِّ وَادٍ مِنْهُ شُعْبَةٌ؟ وَكُلُّ شَيْءٍ تَعَلَّقَ بِهِ وَأَحَبَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَسُومُهُ سُوءَ الْعَذَابِ.

فَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عُذِّبَ بِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ،فَهُوَ يُعَذَّبُ بِهِ قَبْلَ حُصُولِهِ حَتَّى يَحْصُلَ،فَإِذَا حَصَلَ عُذِّبَ بِهِ حَالَ حُصُولِهِ بِالْخَوْفِ مِنْ سَلْبِهِ وَفَوَاتِهِ،وَالتَّنْغِيصِ وَالتَّنْكِيدِ عَلَيْهِ،وَأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الْمُعَارَضَاتِ،فَإِذَا سُلِبَهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ،فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الدَّارِ.

وَأَمَّا فِي الْبَرْزَخِ:فَعَذَابٌ يُقَارِنُهُ أَلَمُ الْفِرَاقِ الَّذِي لَا يَرْجُو عَوْدَةً وَأَلَمُ فَوَاتِ مَا فَاتَهُ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ بِاشْتِغَالِهِ بِضِدِّهِ،وَأَلَمُ الْحِجَابِ عَنِ اللَّهِ،وَأَلَمُ الْحَسْرَةِ الَّتِي تَقْطَعُ الْأَكْبَادَ،فَالْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحُزْنُ تَعْمَلُ فِي نُفُوسِهِمْ نَظِيرَ مَا يَعْمَلُ الْهَوَامُّ وَالدِّيدَانُ فِي أَبْدَانِهِمْ،بَلْ عَمَلُهَا فِي النُّفُوسِ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ،حَتَّى يَرُدَّهَا اللَّهُ إِلَى أَجْسَادِهَا،فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ الْعَذَابُ إِلَى نَوْعٍ هُوَ أَدْهَى وَأَمَرُّ،فَأَيْنَ هَذَا مِنْ نَعِيمِ مَنْ يَرْقُصُ قَلْبُهُ طَرَبًا وَفَرَحًا وَأُنْسًا بِرَبِّهِ،وَاشْتِيَاقًا إِلَيْهِ،وَارْتِيَاحًا بِحُبِّهِ،وَطُمَأْنِينَةً بِذِكْرِهِ؟ حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ فِي حَالِ نَزْعِهِ:وَاطَرَبَاهُ.

وَيَقُولُ الْآخَرُ:مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا،خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا لَذِيذَ الْعَيْشِ فِيهَا،وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا.

وَيَقُولُ الْآخَرُ:لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ[١٧٤].

وَيَقُولُ الْآخَرُ:إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

فَيَا مَنْ بَاعَ حَظَّهُ الْغَالِي بِأَبْخَسِ الثَّمَنِ،وَغُبِنَ كُلَّ الْغَبْنِ فِي هَذَا الْعَقْدِ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ قَدْ غُبِنَ،إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ خِبْرَةٌ بِقِيمَةِ السِّلْعَةِ فَسَلِ الْمُقَوِّمِينَ،فَيَا عَجَبًا مِنْ بِضَاعَةٍ مَعَكَ اللَّهُ مُشْتَرِيهَا وَثَمَنُهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى،وَالسَّفِيرُ الَّذِي جَرَى عَلَى يَدِهِ عَقْدُ التَّبَايُعِ وَضَمِنَ الثَّمَنَ عَنِ الْمُشْتَرِي هُوَ الرَّسُولُ - ﷺ -،وَقَدْ بِعْتَهَا بِغَايَةِ الْهَوَانِ،كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلُ عَبْدٍ بِنَفْسِهِ ...فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يُكْرِمُ

{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [سُورَةُ الْحَجِّ:١٨] .

الْمَعَاصِي تُعْمِي الْبَصِيرَةَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ،وَتَطْمِسُ نُورَهُ،وَتَسُدُّ طُرُقَ الْعِلْمِ،وَتَحْجُبُ مَوَادَّ الْهِدَايَةِ.

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ لِلشَّافِعِيِّ لَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ وَرَأَى تِلْكَ الْمَخَايِلَ:إِنِّي أَرَى اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا،فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ.

وَلَا يَزَالُ هَذَا النُّورُ يَضْعُفُ وَيَضْمَحِلُّ،وَظَلَامُ الْمَعْصِيَةِ يَقْوَى حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ فِي مِثْلِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ،فَكَمْ مِنْ مُهْلَكٍ يَسْقُطُ فِيهِ وَلَا يُبْصِرُ،كَأَعْمَى خَرَجَ بِاللَّيْلِ فِي طَرِيقٍ ذَاتِ مَهَالِكَ وَمَعَاطِبَ،فَيَا عِزَّةَ السَّلَامَةِ وَيَا سُرْعَةَ الْعَطَبِ،ثُمَّ تَقْوَى تِلْكَ الظُّلُمَاتُ،وَتَفِيضُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الْجَوَارِحِ،فَيَغْشَى الْوَجْهَ مِنْهَا سَوَادٌ،بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَتَزَايُدِهَا،فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ ظَهَرَتْ فِي الْبَرْزَخِ،فَامْتَلَأَ الْقَبْرُ ظُلْمَةً،فَعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ أَسْوَدَ كَانَ يُنَظِّفُ الْمَسْجِدَ،فَمَاتَ فَدُفِنَ لَيْلاً وَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَأُخْبِرَ،فَقَالَ:انْطَلِقُوا إِلَى قَبْرِهِ،فَانْطَلَقُوا إِلَى قَبْرِهِ،فَقَالَ:إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مُمْتَلِئَةٌ عَلَى أَهْلِهَا،ظُلْمَةً،وَإِنَّ اللَّهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلَاتِي عَلَيْهَا،فَأَتَى

---

[١٧٤] - صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال (٢/ ٢٧٠) وصيد الخاطر (ص: ٩٦،بترقيم الشاملة آليا)

الْقَبْرَ فَصَلَّى عَلَيْهِ،وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ أَخِي مَاتَ،وَلَمْ تُصَلِّ عَلَيْهِ،قَالَ:فَأَيْنَ قَبْرُهُ ؟ فَأَخْبَرَهُ،فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ الأَنْصَارِيِّ..[١٧٥]

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ،وَحُشِرَ الْعِبَادُ،عَلَتِ الظُّلْمَةُ الْوُجُوهَ عُلُوًّا ظَاهِرًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ،حَتَّى يَصِيرَ الْوَجْهُ أَسْوَدَ مِثْلَ الْحُمَمَةِ،فَيَالَهَا مِنْ عُقُوبَةٍ لَا تُوَازَنُ لَذَّاتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا،فَكَيْفَ بِقِسْطِ الْعَبْدِ الْمُنَغَّصِ الْمُنَكَّدِ الْمُتْعَبِ فِي زَمَنٍ إِنَّمَا هُوَ سَاعَةٌ مِنْ حُلْمٍ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الْمَعَاصِي تُصَغِّرُ النَّفْسَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تُصَغِّرُ النَّفْسَ،وَتَقْمَعُهَا،وَتُدَسِّيهَا،وَتَحْقِرُهَا،حَتَّى تَكُونَ أَصْغَرَ كُلِّ شَيْءٍ وَأَحْقَرَهُ،كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تُنَمِّيهَا وَتُزَكِّيهَا وَتُكَبِّرُهَا،قَالَ تَعَالَى:{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا - وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [سُورَةُ الشَّمْسِ:٩ - ١٠]،وَالْمَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَبَّرَهَا وَأَعْلَاهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَأَظْهَرَهَا،وَقَدْ خَسِرَ مَنْ أَخْفَاهَا وَحَقَّرَهَا وَصَغَّرَهَا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وَأَصْلُ التَّدْسِيَةِ:الْإِخْفَاءُ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ} [سُورَةُ النَّحْلِ:٥٩] .

فَالْعَاصِي يَدُسُّ نَفْسَهُ فِي الْمَعْصِيَةِ،وَيُخْفِي مَكَانَهَا،يَتَوَارَى مِنَ الْخَلْقِ مِنْ سُوءِ مَا يَأْتِي بِهِ،وَقَدِ انْقَمَعَ عِنْدَ نَفْسِهِ،وَانْقَمَعَ عِنْدَ اللَّهِ،وَانْقَمَعَ عِنْدَ الْخَلْقِ،فَالطَّاعَةُ وَالْبِرُّ تُكَبِّرُ النَّفْسَ وَتُعِزُّهَا وَتُعْلِيهَا،حَتَّى تَصِيرَ أَشْرَفَ شَيْءٍ وَأَكْبَرَهُ،وَأَزْكَاهُ وَأَعْلَاهُ،وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ أَذَلُّ شَيْءٍ وَأَحْقَرُهُ وَأَصْغَرُهُ لِلَّهِ تَعَالَى،وَبِهَذَا الذُّلِّ حَصَلَ لَهَا هَذَا الْعِزُّ وَالشَّرَفُ وَالنُّمُوُّ،فَمَا أَصْغَرَ النُّفُوسَ مِثْلُ مَعْصِيَةِ اللَّهِ،وَمَا كَبَّرَهَا وَشَرَّفَهَا وَرَفَعَهَا مِثْلُ طَاعَةِ اللَّهِ.

الْمَعَاصِي فِي سِجْنِ الشَّيْطَانِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّ الْعَاصِيَ دَائِمًا فِي أَسْرِ شَيْطَانِهِ،وَسِجْنِ شَهَوَاتِهِ،وَقُيُودِ هَوَاهُ،فَهُوَ أَسِيرٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ،وَلَا أَسِيرَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ أَسِيرٍ أَسَرَهُ أَعْدَى عَدُوٍّ لَهُ،وَلَا سِجْنَ أَضْيَقُ مِنْ

---

[١٧٥] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٤/ ٣٨٦)(١٢٥١٧) ١٢٥٤٥- صحيح

سِجْنِ الْهَوَى،وَلَا قَيْدَ أَصْعَبُ مِنْ قَيْدِ الشَّهْوَةِ،فَكَيْفَ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ قَلْبٌ مَأْسُورٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ؟ وَكَيْفَ يَخْطُو خُطْوَةً وَاحِدَةً؟

وَإِذَا قُيِّدَ الْقَلْبُ طَرَقَتْهُ الْآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِحَسَبِ قُيُودِهِ،وَمَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الطَّائِرِ،كُلَّمَا عَلَا بَعُدَ عَنِ الْآفَاتِ،وَكُلَّمَا نَزَلَ اسْتَوْحَشَتْهُ الْآفَاتُ.

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ:" إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ،يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ،فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ،وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ "[١٧٦].

وَكَمَا أَنَّ الشَّاةَ الَّتِي لَا حَافِظَ لَهَا وَهِيَ بَيْنَ الذِّئَابِ سَرِيعَةُ الْعَطَبِ،فَكَذَا الْعَبْدُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ فَذِئْبُهُ مُفْتَرِسُهُ وَلَا بُدَّ،وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ بِالتَّقْوَى،فَهِيَ وِقَايَةٌ وَجُنَّةٌ،حَصِينَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذِئْبِهِ،كَمَا هِيَ وِقَايَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُقُوبَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَكُلَّمَا كَانَتِ الشَّاةُ أَقْرَبَ مِنَ الرَّاعِي كَانَتْ أَسْلَمَ مِنَ الذِّئْبِ،وَكُلَّمَا بَعُدَتْ عَنِ الرَّاعِي كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْهَلَاكِ،فَأَسْلَمُ مَا تَكُونُ الشَّاةُ إِذَا قَرُبَتْ مِنَ الرَّاعِي،وَإِنَّمَا يَأْخُذُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْغَنَمِ،وَهِيَ أَبْعَدُ مِنَ الرَّاعِي.

وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ:أَنَّ الْقَلْبَ كُلَّمَا كَانَ أَبْعَدَ مِنَ اللَّهِ كَانَتِ الْآفَاتُ إِلَيْهِ أَسْرَعَ،وَكُلَّمَا قَرُبَ مِنَ اللَّهِ بَعُدَتْ عَنْهُ الْآفَاتُ.

وَالْبُعْدُ مِنَ اللَّهِ مَرَاتِبُ،بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ،فَالْغَفْلَةُ تُبْعِدُ الْقَلْبَ عَنِ اللَّهِ،وَبُعْدُ الْمَعْصِيَةِ أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْغَفْلَةِ،وَبُعْدُ الْبِدْعَةِ أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْمَعْصِيَةِ،وَبُعْدُ النِّفَاقِ وَالشِّرْكِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

الْمَعَاصِي تُسْقِطُ الْكَرَامَةَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:سُقُوطُ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْكَرَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ،فَإِنَّ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ،وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَطْوَعُهُمْ لَهُ،وَعَلَى قَدْرِ طَاعَةِ الْعَبْدِ تَكُونُ لَهُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ،فَإِذَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ،فَأَسْقَطَهُ مِنْ قُلُوبِ عِبَادِهِ،وَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَهُ

---

[١٧٦] – مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٣٥٨)(٢٢٠٢٩) حسن لغيره

جَاهٌ عِنْدَ الْخَلْقِ وَهَانَ عَلَيْهِمْ عَامَلُوهُ عَلَى حَسْبِ ذَلِكَ،فَعَاشَ بَيْنَهُمْ أَسْوَأَ عَيْشٍ خَامِلَ الذِّكْرِ،سَاقِطَ الْقَدْرِ،زَرِيَّ الْحَالِ،لَا حُرْمَةَ لَهُ وَلَا فَرَحَ لَهُ وَلَا سُرُورَ،فَإِنَّ خُمُولَ الذِّكْرِ وَسُقُوطَ الْقَدْرِ وَالْجَاهِ مَعَهُ كُلُّ غَمٍّ وَهَمٍّ وَحَزَنٍ،وَلَا سُرُورَ مَعَهُ وَلَا فَرَحَ،وَأَيْنَ هَذَا الْأَلَمُ مِنْ لَذَّةِ الْمَعْصِيَةِ لَوْلَا سُكْرُ الشَّهْوَةِ؟

وَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ:أَنْ يَرْفَعَ لَهُ بَيْنَ الْعَالَمِينَ ذِكْرَهُ،وَيُعْلِي قَدْرَهُ،وَلِهَذَا خَصَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ - إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} [سُورَةُ ص ٤٥:- ٤٦] .

أَيْ:خَصَصْنَاهُمْ بِخَصِّيصَةٍ،وَهُوَ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ الَّذِي يُذْكَرُونَ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ،وَهُوَ لِسَانُ الصِّدْقِ الَّذِي سَأَلَهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ قَالَ:{وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ:٨٤] .

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ بَنِيهِ:{وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} [سُورَةُ مَرْيَمَ:٥٠] .

وَقَالَ لِنَبِيِّهِ - ﷺ:{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [سُورَةُ الشَّرْحِ:٤] .

فَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مِيرَاثِهِمْ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ،وَكُلُّ مَنْ خَالَفَهُمْ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مُخَالَفَتِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ.

الْمَعْصِيَةُ مَجْلَبَةٌ لِلذَّمِّ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تَسْلُبُ صَاحِبَهَا أَسْمَاءَ الْمَدْحِ وَالشَّرَفِ،وَتَكْسُوهُ أَسْمَاءَ الذَّمِّ وَالصَّغَارِ،فَتَسْلُبُهُ اسْمَ الْمُؤْمِنِ،وَالْبَرِّ،وَالْمُحْسِنِ،وَالْمُتَّقِي،وَالْمُطِيعِ،وَالْمُنِيبِ،وَالْوَلِيِّ،وَالْوَرِعِ،وَالصَّالِحِ،وَالْعَابِدِ،وَالْخَائِفِ،وَالْأَوَّابِ،وَالطَّيِّبِ،وَالْمَرْضِيِّ وَنَحْوِهَا.

وَتَكْسُوهُ اسْمَ الْفَاجِرِ،وَالْعَاصِي،وَالْمُخَالِفِ،وَالْمُسِيءِ،وَالْمُفْسِدِ،وَالْخَبِيثِ،وَالْمَسْخُوطِ،وَالزَّانِي،وَالسَّارِقِ ،وَالْقَاتِلِ،وَالْكَاذِبِ،وَالْخَائِنِ،وَاللُّوطِيِّ،وَقَاطِعِ الرَّحِمِ،وَالْغَادِرِ وَأَمْثَالِهَا.

فَهَذِهِ أَسْمَاءُ الْفُسُوقِ وَ {بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} [سُورَةُ الْحُجُرَاتِ:١١] الَّذِي يُوجِبُ غَضَبَ الدَّيَّانِ،وَدُخُولَ النِّيرَانِ،وَعَيْشَ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ.

وَتِلْكَ أَسْمَاءٌ تُوجِبُ رِضَاءَ الرَّحْمَنِ،وَدُخُولَ الْجِنَانِ،وَتُوجِبُ شَرَفَ الْمُسَمَّى بِهَا عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْإِنْسَانِ،فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عُقُوبَةِ الْمَعْصِيَةِ إِلَّا اسْتِحْقَاقُ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَمُوجِبَاتِهَا لَكَانَ فِي الْعَقْلِ نَاهٍ عَنْهَا،وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ثَوَابِ الطَّاعَةِ إِلَّا الْفَوْزُ بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَمُوجِبَاتِهَا لَكَانَ فِي الْعَقْلِ آمِرٌ بِهَا،وَلَكِنْ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى اللَّهُ،وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ،وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدَ،وَلَا مُبْعِدَ لِمَنْ قَرَّبَ،{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [سُورَةُ الْحَجِّ:١٨]

الْمَعْصِيَةُ تُؤَثِّرُ فِي الْعَقْلِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تُؤَثِّرُ بِالْخَاصَّةِ فِي نُقْصَانِ الْعَقْلِ،فَلَا تَجِدُ عَاقِلَيْنِ أَحَدُهُمَا مُطِيعٌ لِلَّهِ وَالْآخَرُ عَاصٍ،إِلَّا وَعَقْلُ الْمُطِيعِ مِنْهُمَا أَوْفَرُ وَأَكْمَلُ،وَفِكْرُهُ أَصَحُّ،وَرَأْيُهُ أَسَدُّ،وَالصَّوَابُ قَرِينُهُ.

وَلِهَذَا تَجِدُ خِطَابَ الْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ مَعَ أُولِي الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ،كَقَوْلِهِ:{وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ} [سُورَةُ الْبَقَرَةِ:١٩٧]،وَقَوْلِهِ:{فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سُورَةُ الْمَائِدَةِ:١٠٠]،وَقَوْلِهِ:{وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [سُورَةُ الْبَقَرَةِ:٢٦٩]،وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَكَيْفَ يَكُونُ عَاقِلًا وَافِرَ الْعَقْلِ مَنْ يَعْصِي مَنْ هُوَ فِي قَبْضَتِهِ وَفِي دَارِهِ،وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ وَيُشَاهِدُهُ فَيَعْصِيهِ وَهُوَ بِعَيْنِهِ غَيْرُ مُتَوَارٍ عَنْهُ،وَيَسْتَعِينُ بِنِعَمِهِ عَلَى مَسَاخِطِهِ،وَيَسْتَدْعِي كُلَّ وَقْتٍ غَضَبَهُ عَلَيْهِ،وَلَعْنَتَهُ لَهُ،وَإِبْعَادَهُ مِنْ قُرْبِهِ،وَطَرْدَهُ عَنْ بَابِهِ،وَإِعْرَاضَهُ عَنْهُ،وَخِذْلَانَهُ لَهُ،وَالتَّخْلِيَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَعَدُوِّهِ،وَسُقُوطَهُ مِنْ عَيْنِهِ،وَحِرْمَانَهُ رُوحَ رِضَاهُ

وَحُبَّهُ،وَقُرَّةَ الْعَيْنِ بِقُرْبِهِ،وَالْفَوْزَ بِجِوَارِهِ،وَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي زُمْرَةِ أَوْلِيَائِهِ،إِلَى أَضْعَافِ أَضْعَافِ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَتِهِ أَهْلَ الطَّاعَةِ،وَأَضْعَافِ أَضْعَافِ ذَلِكَ مِنْ عُقُوبَةِ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ.

فَأَيُّ عَقْلٍ لِمَنْ آثَرَ لَذَّةَ سَاعَةٍ أَوْ يَوْمٍ أَوْ دَهْرٍ،ثُمَّ تَنْقَضِي كَأَنَّهَا حُلْمٌ لَمْ يَكُنْ،عَلَى هَذَا النَّعِيمِ الْمُقِيمِ،وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ؟ بَلْ هُوَ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَلَوْلَا الْعَقْلُ الَّذِي تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمَجَانِينِ،بَلْ قَدْ يَكُونُ الْمَجَانِينُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ وَأَسْلَمَ عَاقِبَةً،فَهَذَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَأَمَّا تَأْثِيرُهَا فِي نُقْصَانِ الْعَقْلِ الْمَعِيشِ،فَلَوْلَا الِاشْتِرَاكُ فِي هَذَا النُّقْصَانِ،لَظَهَرَ لِمُطِيعِنَا نُقْصَانُ عَقْلٍ عَاصِينَا،وَلَكِنَّ الْجَائِحَةَ عَامَّةٌ،وَالْجُنُونَ فُنُونٌ.

وَيَا عَجَبًا لَوْ صَحَّتِ الْعُقُولُ لَعَلِمَتْ أَنَّ طَرِيقَ تَحْصِيلِ اللَّذَّةِ وَالْفَرْحَةِ وَالسُّرُورِ وَطِيبِ الْعَيْشِ،إِنَّمَا هُوَ فِي رِضَاءِ مَنِ النَّعِيمُ كُلُّهُ فِي رِضَاهُ،وَالْأَلَمُ وَالْعَذَابُ كُلُّهُ فِي سُخْطِهِ وَغَضَبِهِ،فَفِي رِضَاهُ قُرَّةُ الْعُيُونِ،وَسُرُورُ النُّفُوسِ،وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ،وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ،وَطِيبُ الْحَيَاةِ،وَلَذَّةُ الْعَيْشِ،وَأَطْيَبُ النَّعِيمِ،وَمِمَّا لَوْ وُزِنَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا لَمْ يَفِ بِهِ،بَلْ إِذَا حَصَلَ لِلْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ أَيْسَرُ نَصِيبٍ لَمْ يَرْضَ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا عِوَضًا مِنْهُ،وَمَعَ هَذَا فَهُوَ يَتَنَعَّمُ بِنَصِيبِهِ مِنَ الدُّنْيَا أَعْظَمَ مِنْ تَنَعُّمِ الْمُتْرَفِينَ فِيهَا،وَلَا يَشُوبُ تَنَعُّمَهُ بِذَلِكَ الْحَظِّ الْيَسِيرِ مَا يَشُوبُ تَنَعُّمَ الْمُتْرَفِينَ مِنَ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْأَحْزَانِ الْمُعَارِضَاتِ،بَلْ قَدْ حَصَلَ لَهُ عَلَى النَّعِيمَيْنِ وَهُوَ يَنْتَظِرُ نَعِيمَيْنِ آخَرَيْنِ أَعْظَمَ مِنْهُمَا،وَمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنَ الْآلَامِ،فَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ} [سُورَةُ النِّسَاءِ:١٠٤] .

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا أَنْقَصَ عَقْلَ مَنْ بَاعَ الدُّرَّ بِالْبَعْرِ،وَالْمِسْكَ بِالرَّجِيعِ،وَمُرَافَقَةَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ،بِمُرَافَقَةِ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا.

الْمَعَاصِي تُوجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ

وَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تُوجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،وَإِذَا وَقَعَتِ الْقَطِيعَةُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ،فَأَيُّ فَلَاحٍ،وَأَيُّ رَجَاءٍ،وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ،وَقَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلِيِّهِ وَمَوْلَاهُ الَّذِي لَا غِنَى عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ،وَلَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ،وَلَا عِوَضَ لَهُ عَنْهُ،وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ،وَوَصَلَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَى عَدُوٍّ لَهُ:فَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ وَتَخَلَّى عَنْهُ وَلِيُّهُ؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا فِي هَذَا الِانْقِطَاعِ وَالِاتِّصَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الْآلَامِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَف:رَأَيْتُ الْعَبْدَ مُلْقًى بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ،فَإِنْ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ تَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ،وَإِنْ تَوَلَّاهُ اللَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [سُورَةُ الْكَهْف:٥٠] .

يَقُولُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِه:أَنَا أَكْرَمْتُ أَبَاكُمْ،وَرَفَعْتُ قَدْرَهُ،وَفَضَّلْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ،فَأَمَرْتُ مَلَائِكَتِي كُلَّهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ،تَكْرِيمًا لَهُ وَتَشْرِيفًا،فَأَطَاعُونِي،وَأَبَى عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ،فَعَصَى أَمْرِي،وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي،فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِكُمْ بَعْدَ هَذَا أَنْ تَتَّخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي،فَتُطِيعُونَهُ فِي مَعْصِيَتِي،وَتُوَالُونَهُ فِي خِلَافِ مَرْضَاتِي وَهُمْ أَعْدَى عَدُوٍّ لَكُمْ؟ فَوَالَيْتُمْ عَدُوِّي وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِمُعَادَاتِه،وَمَنْ وَالَى أَعْدَاءَ الْمَلِكِ،كَانَ هُوَ وَأَعْدَاؤُهُ عِنْدَهُ سَوَاءً،فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ وَالطَّاعَةَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِمُعَادَاةِ أَعْدَاءِ الْمُطَاعِ وَمُوَالَاةِ أَوْلِيَائِه،وَأَمَّا أَنْ تُوَالِيَ أَعْدَاءَ الْمَلِكِ ثُمَّ تَدَّعِي أَنَّكَ مُوَالٍ لَهُ،فَهَذَا مُحَالٌ.

هَذَا لَوْ لَمْ يَكُنْ عَدُوُّ الْمَلِكِ عَدُوًّا لَكُمْ،فَكَيْفَ إِذَا كَانَ عَدُوُّكُمْ عَلَى الْحَقِيقَةِ،وَالْعَدَاوَةُ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ مِنَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي بَيْنَ الشَّاةِ وَبَيْنَ الذِّئْبِ؟ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يُوَالِيَ عَدُوَّهُ عَدُوَّ وَلِيِّهِ وَمَوْلَاهُ الَّذِي لَا مَوْلَى لَهُ سِوَاهُ،وَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى قُبْحِ هَذِهِ الْمُوَالَاةِ بِقَوْلِه:{وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ} [سُورَةُ الْكَهْف:٥٠]،كَمَا نَبَّهَ عَلَى قُبْحِهَا بِقَوْلِه تَعَالَى:{فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [سُورَةُ الْكَهْف:٥٠]،فَتَبَيَّنَ أَنَّ عَدَاوَتَهُ لِرَبِّهِ وَعَدَاوَتَهُ لَنَا،كُلٌّ مِنْهُمَا سَبَبٌ يَدْعُو إِلَى مُعَادَاتِه،فَمَا هَذِهِ الْمُوَالَاةُ؟ وَمَا هَذَا الِاسْتِبْدَالُ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا.

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ هَذَا الْخِطَابِ نَوْعٌ مِنَ الْعِتَابِ لَطِيفٌ عَجِيبٌ وَهُوَ أَنِّي عَادَيْتُ إِبْلِيسَ إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لِأَبِيكُمْ آدَمَ مَعَ مَلَائِكَتِي فَكَانَتْ مُعَادَاتُهُ لِأَجْلِكُمْ،ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ أَنْ عَقَدْتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَقْدَ الْمُصَالَحَةِ.

الْمَعَاصِي تَمْحَقُ الْبَرَكَةَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تَمْحَقُ بَرَكَةَ الْعُمُرِ،وَبَرَكَةَ الرِّزْقِ،وَبَرَكَةَ الْعِلْمِ،وَبَرَكَةَ الْعَمَلِ،وَبَرَكَةَ الطَّاعَةِ.

وَبِالْجُمْلَةِ أَنَّهَا تَمْحَقُ بَرَكَةَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا،فَلَا تَجِدُ أَقَلَّ بَرَكَةٍ فِي عُمُرِهِ وَدِينِهِ وَدُنْيَاهُ مِمَّنْ عَصَى اللَّهَ،وَمَا مُحِقَتِ الْبَرَكَةُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا بِمَعَاصِي الْخَلْقِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الْأَعْرَافِ:٩٦] .

وَقَالَ تَعَالَى:{وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا - لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [الْجِنِّ:١٦ - ١٧] .

عَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ،وَلَا يُرَدُّ الْقَدْرُ إِلَّا بِالدُّعَاءِ،وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ»[١٧٧]..

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«نَفَثَ رُوحُ الْقُدُسِ فِي رَوْعِي أَنَّ نفْسًا لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا،وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا،فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ،وَلَا يَحْمِلَنَّكُمِ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ،فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»[١٧٨]

وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ:إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرَجَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا،وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ.[١٧٩]

---

[١٧٧] – صحيح ابن حبان – مخرجا (٣/ ١٥٤)(٨٧٢) حسن لغيره

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: قَوْلُهُ ﷺ فِي هَذَا الْخَبَرِ لَمْ يُرِدْ بِهِ عُمُومَهُ،وَذَاكَ أَنَّ الذَّنْبَ لَا يَحْرِمُ الرِّزْقَ الَّذِي رُزِقَ الْعَبْدُ،بَلْ يُكَدِّرِ عَلَيْهِ صَفَاءَهُ إِذَا فَكَرَّ فِي تَعْقِيبِ الْحَالَةِ فِيهِ.

وَدَوَامُ الْمَرْءِ عَلَى الدُّعَاءِ يُطَيِّبُ لَهُ وُرُودَ الْقَضَاءِ،فَكَأَنَّهُ رَدَّهُ لِقِلَّةِ حِسِّهِ بِأَلَمِهِ،وَالْبِرُّ يُطَيِّبُ الْعَيْشَ حَتَّى كَأَنَّهُ يُزَادُ فِي عُمُرِهِ بِطِيبِ عَيْشِهِ،وَقِلَّةِ تَعَذُّرِ ذَلِكَ فِي الْأَحْوَالِ

[١٧٨] – المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٦٦)(٧٦٩٤) صحيح لغيره

وعَبْدُ اللَّه:إِنَّ مِنَ الْيَقِينِ أَنْ لَا تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّه،وَأَنْ لَا تَحْمِدَ أَحَدًا عَلَى مَا رَزَقَكَ اللَّهُ،وَلَا تَذُمَّنَّ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ،فَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ،وَلَا يَمْنَعُهُ كَرَاهَةُ كَارِهٍ،فَإِنَّ اللَّهَ بِحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ وَقَصْدِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَجَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا،وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ "[١٨٠].

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْأَثَرُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ عن بَكَّارَ قَالَ:سَمِعْتُ وَهْبًا يَقُولُ:" إِنَّ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ فِي بَعْضِ مَا يَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:إِنِّي إِذَا أُطِعْتُ رَضِيتُ،وَإِذَا رَضِيتُ بَارَكْتُ،وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي نِهَايَةٌ،وَإِنِّي إِذَا عُصِيتُ غَضِبْتُ،وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ،وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ "[١٨١].

وعَنِ ابْنِ مُنَبِّهٍ،قَالَ:أَوْحَى اللهُ إِلَى عُزَيْرٍ يَا عُزَيْرُ،لاَ تَحْلِفْ بِي كَاذِبًا فَإِنِّي لاَ أَرْضَى عَمَّنْ يَحْلِفُ بِي كَاذِبًا،يَا عُزَيْرُ بِرَّ،وَالِدَيْكَ فَإِنَّهُ مَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ رَضِيت،وَإِذَا رَضِيت بَارَكْت،وَإِذَا بَارَكْت بَلَغْت النَّسْلَ الرَّابِعَ،يَا عُزَيْرُ،لاَ تَعُقَّ وَالِدَيْكَ فَإِنَّهُ مَنْ يَعُقُّ وَالِدَيْهِ غَضِبْت وَإِذَا غَضِبْت لَعَنَت،وَإِذَا لَعَنَت بَلَغْت النَّسْلَ الرَّابِعَ.[١٨٢]

وَلَيْسَتْ سَعَةُ الرِّزْقِ وَالْعَمَلِ بِكَثْرَتِهِ،وَلَا طُولُ الْعُمُرِ بِكَثْرَةِ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ،وَلَكِنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ وَطُولَ الْعُمُرِ بِالْبَرَكَةِ فِيهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ عُمْرَ الْعَبْدِ هُوَ مُدَّةُ حَيَاتِهِ،وَلَا حَيَاةَ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَاشْتَغَلَ بِغَيْرِهِ،بَلْ حَيَاةُ الْبَهَائِمِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِهِ،فَإِنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ بِحَيَاةِ قَلْبِهِ وَرُوحِهِ،وَلَا حَيَاةَ لِقَلْبِهِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ فَاطِرِهِ،وَمَحَبَّتِهِ،وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ،وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ،وَالطُّمَأْنِينَةِ بِذِكْرِهِ،وَالْأُنْسِ بِقُرْبِهِ،وَمَنْ فَقَدَ هَذِهِ الْحَيَاةَ فَقَدَ الْخَيْرَ كُلَّهُ،وَلَوْ تَعَرَّضَ عَنْهَا بِمَا تَعَوَّضَ مِمَّا فِي الدُّنْيَا،بَلْ لَيْسَتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا عِوَضًا عَنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ،فَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَفُوتُ الْعَبْدَ عِوَضٌ،وَإِذَا فَاتَهُ اللَّهُ لَمْ يُعَوِّضْ عَنْهُ شَيْءٌ الْبَتَّةَ.

---

[١٧٩] – المجالسة وجواهر العلم (٧/ ٧٢)(٢٩٣٦) حسن موقوف

[١٨٠] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ١٢١) وشعب الإيمان (١/ ٣٨٤)(٢٠٥) ومعجم ابن الأعرابي (٢/ ٧٣٥)(١٤٩١) صحيح لغيره موقوف – زيادة مني و لم يصح رفعه

[١٨١] – الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٤٧)(٢٨٩) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ٤١)حسن مقطوع

[١٨٢] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٩/ ٣٦١)(٣٦٣١٩) صحيح مقطوع – زيادة مني

وَكَيْفَ يُعَوَّضُ الْفَقِيرُ بِالذَّاتِ عَنِ الْغَنِيِّ بِالذَّاتِ،وَالْعَاجِزُ بِالذَّاتِ عَنِ الْقَادِرِ بِالذَّاتِ،وَالْمَيِّتُ عَنِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ،وَالْمَخْلُوقُ عَنِ الْخَالِقِ،وَمَنْ لَا وُجُودَ لَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ الْبَتَّةَ عَمَّنْ غِنَاهُ وَحَيَاتُهُ وَكَمَالُهُ وَوُجُودُهُ وَرَحْمَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟ وَكَيْفَ يُعَوَّضُ مَنْ لَا يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ عَمَّنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَإِنَّمَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ سَبَبًا لِمَحْقِ بَرَكَةِ الرِّزْقِ وَالْأَجَلِ،لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مُوَكَّلٌ بِهَا وَبِأَصْحَابِهَا،فَسُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ،وَحَوَالَتُهُ عَلَى هَذَا الدِّيوَانِ وَأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ،وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَيُقَارِنُهُ،فَبَرَكَتُهُ مَمْحُوقَةٌ،وَلِهَذَا شُرِعَ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللُّبْسِ وَالرُّكُوبِ وَالْجِمَاعِ لِمَا فِي مُقَارَنَةِ اسْمِ اللَّهِ مِنَ الْبَرَكَةِ،وَذِكْرُ اسْمِهِ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ فَتَحْصُلُ الْبَرَكَةُ وَلَا مُعَارِضَ لَهُ،وَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَكُونُ لِلَّهِ فَبَرَكَتُهُ مَنْزُوعَةٌ،فَإِنَّ الرَّبَّ هُوَ الَّذِي يُبَارِكُ وَحْدَهُ،وَالْبَرَكَةُ كُلُّهَا مِنْهُ،وَكُلُّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مُبَارَكٌ،فَكَلَامُهُ مُبَارَكٌ،وَرَسُولُهُ مُبَارَكٌ،وَعَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ النَّافِعُ لِخَلْقِهِ مُبَارَكٌ،وَبَيْتُهُ الْحَرَامُ مُبَارَكٌ،وَكِنَانَتُهُ مِنْ أَرْضِهِ،وَهِيَ الشَّامُ أَرْضُ الْبَرَكَةِ،وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ فِي ستِّ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ،فَلَا مُبَارِكَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ،وَلَا مُبَارَكَ إِلَّا مَا نُسِبَ إِلَيْهِ،أَعْنِي إِلَى أُلُوهِيَّتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ،وَإِلَّا فَالْكَوْنُ كُلُّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَخَلْقِهِ،وَكُلُّ مَا بَاعَدَهُ مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ فَلَا بَرَكَةَ فِيهِ،وَلَا خَيْرَ فِيهِ،وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ فَفِيهِ مِنَ الْبَرَكَةِ عَلَى حَسَبِ قُرْبِهِ مِنْهُ.

وَضِدُّ الْبَرَكَةِ اللَّعْنَةُ؛ فَأَرْضٌ لَعَنَهَا اللَّهُ أَوْ شَخْصٌ لَعَنَهُ اللَّهُ أَوْ عَمَلٌ لَعَنَهُ اللَّهُ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ،وَكُلَّمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ وَارْتَبَطَ بِهِ وَكَانَ مِنْهُ بِسَبِيلٍ فَلَا بَرَكَةَ فِيهِ الْبَتَّةَ.

وَقَدْ لَعَنَ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ وَجَعَلَهُ أَبْعَدَ خَلْقِهِ مِنْهُ،فَكُلُّ مَا كَانَ جِهَتَهُ فَلَهُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ وَاتِّصَالِهِ بِهِ،فَمِنْ هَاهُنَا كَانَ لِلْمَعَاصِي أَعْظَمُ تَأْثِيرٍ فِي مَحْقِ بَرَكَةِ الْعُمُرِ وَالرِّزْقِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ،وَكُلُّ وَقْتٍ عَصَيْتَ اللَّهَ فِيهِ،أَوْ مَالٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ،أَوْ بَدَنٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ فَهُوَ عَلَى صَاحِبِهِ لَيْسَ لَهُ،فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمُرِهِ وَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ وَجَاهِهِ وَعِلْمِهِ وَعَمَلِهِ إِلَّا مَا أَطَاعَ اللَّهَ بِهِ.

وَلِهَذَا مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعِيشُ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِائَةَ سَنَةٍ أَوْ نَحْوَهَا،وَيَكُونُ عُمُرُهُ لَا يَبْلُغُ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا،كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَمْلِكُ الْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَيَكُونُ مَالُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَبْلُغُ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَوْ نَحْوَهَا،وَهَكَذَا الْجَاهُ وَالْعِلْمُ.

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ضَمْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»[١٨٣] .

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ،مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ،أَوْ آوَى إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ.[١٨٤]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ:الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا أَدَّى إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ،وَالْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ وَسَائِرُ النَّاسِ هَمَجٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ "[١٨٥]

وَفِي أَثَرٍ آخَرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[١٨٦]

فَهَذَا هُوَ الَّذِي فِيهِ الْبَرَكَةُ خَاصَّةً،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

[١٨٣] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٦١)(٢٣٢٢) حسن

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الزَّاهِدُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الدُّنْيَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ مَلَاذَّ النُّفُوسِ،وَشَهَوَاتِهَا،وَجَمِيعَ حُطَامِهَا،وَزَهْرَاتِهَا،وَمَا ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} [آل عمران: ١٤] ،وَحُبَّ الْبَقَاءِ فِيهَا،فَتَكُونُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ هِيَ الْمَلْعُونَةَ إِذَا كَانَتْ لِلنُّفُوسِ وَشَهَوَاتِهَا وَلَذَّةِ الطَّبْعِ [ص:١٥٧]،وَالتَّلَهِّي بِهَا،وَالشُّغْلِ فِيهَا،وَالْحُبِّ لَهَا،وَلَمْ تَكُنْ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَا فِيهِ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ الْحَيَاةُ الْأُولَى الَّتِي يَلِيهَا الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ،وَالْآخِرَةُ هِيَ الْحَيَاةُ الْبَاقِيَةُ،الَّتِي لَيْسَ لَهَا زَوَالٌ وَلَا فَنَاءٌ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ» أَيْ: مَرْفُوضَةٌ مَتْرُوكَةٌ،وَمَا فِيهَا أَيْ: مَا فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ،وَالْمَلَاذِّ،وَالْحُطَامِ،وَمَا ذُكِرَ فِي الْآيَةِ مَلْعُونٌ،أَيْ: مَتْرُوكٌ يَجِبُ تَرْكُهَا،وَرَفْضُهَا،وَالْإِعْرَاضُ عَنْهَا،فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذَا حَثَّ،وَإِلَيْهِ نَدَبَ،وَفِيهِ رَغَّبَ،وَعَنْهَا زَهَّدَ،فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ} [يونس: ٢٤] ،وَقَالَ {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [محمد: ٣٦] ،وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [لقمان: ٣٣] بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص: ١٥٦)

[١٨٤] – الزهد لأبي داود (ص: ٢٠٠)(٢١٣) صحيح موقوف – زيادة مني

[١٨٥] – الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١١٢)(٧٣٢) صحيح موقوف – زيادة مني

[١٨٦] – الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٧)(١٥٤) صحيح مرسل

الْمَعْصِيَةُ تَجْعَلُ صَاحِبَهَا مِنَ السَّفَلَةِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تَجْعَلُ صَاحِبَهَا مِنَ السَّفَلَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُهَيَّئًا لِأَنْ يَكُونَ مِنَ الْعِلْيَةِ،فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ قِسْمَيْنِ:عِلْيَةً،وَسَفَلَةً،وَجَعَلَ عِلِّيِّينَ مُسْتَقَرَّ الْعِلْيَةِ،وَأَسْفَلَ سَافِلِينَ مُسْتَقَرَّ السَّفَلَةِ،وَجَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ الْأَعْلَيْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ الْأَسْفَلِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،كَمَا جَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ أَكْرَمَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ،وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ أَهْوَنَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ،وَجَعَلَ الْعِزَّةَ لِهَؤُلَاءِ،وَالذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ لِهَؤُلَاءِ،كَمَا فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:" بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لِيُعْبَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ رُمْحِي وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَنِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ "[١٨٧]

فَكُلَّمَا عَمِلَ الْعَبْدُ مَعْصِيَةً نَزَلَ إِلَى أَسْفَلَ،دَرَجَةً،وَلَا يَزَالُ فِي نُزُولٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَسْفَلِينَ،وَكُلَّمَا عَمِلَ طَاعَةً ارْتَفَعَ بِهَا دَرَجَةً،وَلَا يَزَالُ فِي ارْتِفَاعٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَعْلَيْنَ.

وَقَدْ يَجْتَمِعُ لِلْعَبْدِ فِي أَيَّامِ حَيَاتِهِ الصُّعُودُ مِنْ وَجْهٍ،وَالنُّزُولُ مِنْ وَجْهٍ،وَأَيُّهُمَا كَانَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ،فَلَيْسَ مَنْ صَعِدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ وَنَزَلَ دَرَجَةً وَاحِدَةً،كَمَنْ كَانَ بِالْعَكْسِ.

وَلَكِنْ يَعْرِضُ هَاهُنَا لِلنُّفُوسِ غَلَطٌ عَظِيمٌ،وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَنْزِلُ نُزُولًا بَعِيدًا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ،وَمِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ،فَلَا يَفِي صُعُودُهُ أَلْفَ دَرَجَةٍ بِهَذَا النُّزُولِ الْوَاحِدِ،كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ،لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا،يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ،وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ،لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا،يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[١٨٨].

فَأَيُّ صُعُودٍ يُوَازِنُ هَذِهِ النَّزْلَةَ؟ وَالنُّزُولُ أَمْرٌ لَازِمٌ لِلْإِنْسَانِ،وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى غَفْلَةٍ،فَهَذَا مَتَى اسْتَيْقَظَ مِنْ غَفْلَتِهِ عَادَ إِلَى دَرَجَتِهِ،أَوْ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا بِحَسْبِ يَقَظَتِهِ.

---

[١٨٧] – شرح مشكل الآثار (١/ ٢١٣)(٢٣١) ومسند أحمد ط الرسالة (٩/ ١٢٣)(٥١١٤) حسن

[١٨٨] – صحيح البخاري (٨/ ١٠١)(٦٤٧٨) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٠)٥٠ – (٢٩٨٨)

[ش (من رضوان الله) مما يرضي الله تعالى.(لا يلقي لها بالا) لا يبالي بها ولا يلتفت إلى معناها خاطره ولا يعتد بها ولا يعيها بقلبه.(سخط الله) مما يغضبه ولا يرضاه.(يهوي بها) يسقط بسببها]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مُبَاحٍ لَا يَنْوِي بِهِ الِاسْتِعَانَةَ عَلَى الطَّاعَةِ،فَهَذَا مَتَى رَجَعَ إِلَى الطَّاعَةِ فَقَدْ يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ،وَقَدْ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا،وَقَدْ يَرْتَفِعُ عَنْهَا،فَإِنَّهُ قَدْ يَعُودُ أَعْلَى هِمَّةً مِمَّا كَانَ،وَقَدْ يَكُونُ أَضْعَفَ هِمَّةً،وَقَدْ تَعُودُ هِمَّتُهُ كَمَا كَانَتْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ،إِمَّا صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ،فَهَذَا يَحْتَاجُ فِي عَوْدِهِ إِلَى دَرَجَتِهِ إِلَى تَوْبَةٍ نَصُوحٍ،وَإِنَابَةٍ صَادِقَةٍ.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ يَعُودُ بَعْدَ التَّوْبَةِ إِلَى دَرَجَتِهِ الَّتِي كَانَ فِيهَا،بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَمْحُو أَثَرَ الذَّنْبِ،وَتَجْعَلُ وُجُودَهُ كَعَدَمِهِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ،أَوْ لَا يَعُودُ،بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَأْثِيرُهَا فِي إِسْقَاطِ الْعُقُوبَةِ،وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الَّتِي فَاتَتْهُ فَإِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا.

قَالُوا:وَتَقْرِيرُ ذَلِكَ:أَنَّهُ كَانَ مُسْتَعِدًّا بِاشْتِغَالِهِ بِالطَّاعَةِ فِي الزَّمَنِ الَّذِي عَصَى فِيهِ لِصُعُودٍ آخَرَ وَارْتِقَاءٍ تَحْمِلُهُ أَعْمَالُهُ السَّالِفَةُ،بِمَنْزِلَةِ كَسْبِ الرَّجُلِ كُلَّ يَوْمٍ بِجُمْلَةِ مَالِهِ الَّذِي يَمْلِكُهُ،وَكُلَّمَا تَضَاعَفَ الْمَالُ تَضَاعَفَ الرِّبْحُ،فَقَدْ رَاحَ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ الْمَعْصِيَةِ ارْتِفَاعٌ وَرِبْحٌ تَحْمِلُهُ أَعْمَالُهُ،فَإِذَا اسْتَأْنَفَ الْعَمَلَ اسْتَأْنَفَ صُعُودًا مِنْ نُزُولٍ،وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ صَاعِدًا مِنْ أَسْفَلَ إِلَى أَعْلَى،وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ عَظِيمٌ.

قَالُوا:وَمَثَلُ ذَلِكَ رَجُلَانِ يَرْتَقِيَانِ فِي سُلَّمَيْنِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا،وَهُمَا سَوَاءٌ،فَنَزَلَ أَحَدُهُمَا إِلَى أَسْفَلَ،وَلَوْ دَرَجَةً وَاحِدَةً،ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الصُّعُودَ،فَإِنَّ الَّذِي لَمْ يَنْزِلْ يَعْلُو عَلَيْهِ وَلَا بُدَّ.

وَحَكَمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ حُكْمًا مَقْبُولًا فَقَالَ:

التَّحْقِيقُ أَنَّ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ يَعُودُ إِلَى أَرْفَعَ مِنْ دَرَجَتِهِ،وَمِنْهُمْ مِنْ يَعُودُ إِلَى مِثْلِ دَرَجَتِهِ،وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَى دَرَجَتِهِ.

قُلْتُ:وَهَذَا بِحَسْبِ قُوَّةِ التَّوْبَةِ وَكَمَالِهَا،وَمَا أَحْدَثَتْهُ الْمَعْصِيَةُ لِلْعَبْدِ مِنَ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْإِنَابَةِ،وَالْحَذَرِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ،وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ،فَقَدْ تَقْوَى هَذِهِ الْأُمُورُ،حَتَّى يَعُودَ التَّائِبُ إِلَى أَرْفَعَ مِنْ دَرَجَتِهِ،وَيَصِيرَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ،فَهَذَا قَدْ تَكُونُ الْخَطِيئَةُ فِي حَقِّهِ رَحْمَةً،فَإِنَّهَا نَفَتْ عَنْهُ دَاءَ الْعُجْبِ،وَخَلَّصَتْهُ مِنْ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ وَإِدْلَالِهِ بِأَعْمَالِهِ،وَوَضَعَتْ خَدَّ ضَرَاعَتِهِ وَذُلَّهُ وَانْكِسَارَهُ عَلَى عَتَبَةِ بَابِ سَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ،وَعَرَّفَتْهُ قَدْرَهُ،وَأَشْهَدَتْهُ فَقْرَهُ وَضَرُورَتَهُ إِلَى حِفْظِ مَوْلَاهُ لَهُ،وَإِلَى عَفْوِهِ عَنْهُ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُ،وَأَخْرَجَتْ

مِنْ قَلْبِهِ صَوْلَةَ الطَّاعَةِ،وَكَسَرَتْ أَنْفَهُ مِنْ أَنْ يَشْمَخَ بِهَا أَوْ يَتَكَبَّرَ بِهَا،أَوْ يَرَى نَفْسَهُ بِهَا خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِ،وَأَوْقَفَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ مَوْقِفَ الْخَطَّائِينَ الْمُذْنِبِينَ،نَاكِسَ الرَّأْسِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ،مُسْتَحيًا خَائِفًا مِنْهُ وَجِلًا،مُحْتَقِرًا لِطَاعَتِهِ مُسْتَعْظِمًا لِمَعْصِيَتِهِ،عَرَفَ نَفْسَهُ بِالنَّقْصِ وَالذَّمِّ.وَرَبُّهُ مُتَفَرِّدٌ بِالْكَمَالِ وَالْحَمْدِ وَالْوَفَاءِ كَمَا قِيلَ:[١٨٩]

اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْحَمْ ...دِ وَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا

فَأَيُّ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ اسْتَكْثَرَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَرَأَى نَفْسَهُ دُونَهَا وَلَمْ يَرَهَا أَهْلًا،وَأَيُّ نِقْمَةٍ أَوْ بَلِيَّةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ رَأَى نَفْسَهُ أَهْلًا لِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا،وَرَأَى مَوْلَاهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ،إِذْ لَمْ يُعَاقِبْهُ عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ وَلَا شَطْرِهِ،وَلَا أَدْنَى جُزْءٍ مِنْهُ.

فَإِنَّ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لَا تَحْمِلُهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ،فَضْلًا عَنْ هَذَا الْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ،فَإِنَّ الذَّنْبَ وَإِنْ صَغُرَ،فَإِنَّ مُقَابَلَةَ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ،الْكَبِيرِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَكْبَرُ مِنْهُ،الْجَلِيلِ الَّذِي لَا أَجَلَّ مِنْهُ وَلَا أَجْمَلَ،الْمُنْعِمِ بِجَمِيعِ أَصْنَافِ النِّعَمِ دَقِيقِهَا وَجُلِّهَا – مِنْ أَقْبَحِ الْأُمُورِ وَأَفْظَعِهَا وَأَشْنَعِهَا،فَإِنَّ مُقَابَلَةَ الْعُظَمَاءِ وَالْأَجِلَّاءِ وَسَادَاتِ النَّاسِ بِمِثْلِ ذَلِكَ يَسْتَقْبِحُهُ كُلُّ أَحَدٍ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ.وَأَرْذَلُ النَّاسِ وَأَسْقَطُهُمْ مُرُوءَةً مَنْ قَابَلَهُمْ بِالرَّذَائِلِ،فَكَيْفَ بِعَظِيمِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،وَمَلِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،وَإِلَهِ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَلَوْلَا أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ،وَمَغْفِرَتَهُ سَبَقَتْ عُقُوبَتَهُ،وَإِلَّا لَتَدَكْدَكَتِ الْأَرْضُ بِمَنْ قَابَلَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ مُقَابَلَتُهُ بِهِ،وَلَوْلَا حِلْمُهُ وَمَغْفِرَتُهُ لَزُلْزِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ مِنْ مَعَاصِي الْعِبَادِ،قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [سُورَةُ فَاطِرٍ:٤١] .

فَتَأَمَّلْ خَتْمَ هَذِهِ الْآيَةِ بِاسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ،وَهُمَا:" الْحَلِيمُ،وَالْغَفُورُ " كَيْفَ تَجِدُ تَحْتَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا حِلْمُهُ عَنِ الْجُنَاةِ وَمَغْفِرَتُهُ لِلْعُصَاةِ لَمَا اسْتَقَرَّتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟

---

[١٨٩] – الحيوان (٣/ ٢٣٣) والشعر والشعراء (١/ ٧٠) والعقد الفريد (٢/ ٢١٨) والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (ص: ٥٩) وتاريخ آداب العرب (٣/ ٨٦) وتاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي (ص: ٣٤٠) وعيار الشعر (ص: ١٧٠)

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ كُفْرِ بَعْضِ عِبَادِهِ أَنَّهُ:{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} [سُورَةُ مَرْيَمَ:٩٠] .

وَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ارْتَكَبَاهُ وَخَالَفَا فِيهِ نَهْيَهُ،وَلَعَنَ إِبْلِيسَ وَطَرَدَهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ارْتَكَبَهُ وَخَالَفَ فِيهِ أَمْرَهُ،وَنَحْنُ مَعَاشِرُ الْحَمْقَى كَمَا قِيلَ:

نَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَنَرْتَجِي ...دَرَجَ الْجِنَانِ لِذِي النَّعِيمِ الْخَالِدِ

وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنْ ...مَلَكُوتِهِ الْأَعْلَى بِذَنْبٍ وَاحِدِ

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ وَأَرْفَعَ دَرَجَةً،وَقَدْ تُضْعِفُ الْخَطِيئَةُ هِمَّتَهُ وَتُوهِنُ عَزْمَهُ،وَتُمْرِضُ قَلْبَهُ،فَلَا يَقْوَى دَوَاءُ التَّوْبَةِ عَلَى إِعَادَتِهِ إِلَى الصِّحَّةِ الْأَوْلَى،فَلَا يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ،وَقَدْ يَزُولُ الْمَرَضُ بِحَيْثُ تَعُودُ الصِّحَّةُ كَمَا كَانَتْ وَيَعُودُ إِلَى مِثْلِ عَمَلِهِ،فَيَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ.

هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ نُزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ،فَإِنْ كَانَ نُزُولُهُ إِلَى أَمْرٍ يَقْدَحُ فِي أَصْلِ إِيمَانِهِ،مِثْلِ الشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ وَالنِّفَاقِ،فَذَاكَ نُزُولٌ لَا يُرْجَى لِصَاحِبِهِ صُعُودٌ إِلَّا بِتَجْدِيدِ إِسْلَامِهِ.

الْمَعَاصِي تُجَرِّئُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْدَاءَهُ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تُجَرِّئُ عَلَى الْعَبْدِ مَا لَمْ يَكُنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ،فَتَجْتَرِئُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينَ بِالْأَذَى وَالْإِغْوَاءِ وَالْوَسْوَسَةِ وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّحْزِينِ،وَإِنْسَائِهِ مَا بِهِ مَصْلَحَتُهُ فِي ذِكْرِهِ،وَمَضَرَّتُهُ فِي نِسْيَانِهِ،فَتَجْتَرِئُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ حَتَّى تَؤُزَّهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَزًّا.

وَتَجْتَرِئُ عَلَيْهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَذَى فِي غَيْبَتِهِ وَحُضُورِهِ،وَيَجْتَرِئُ عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَخَدَمُهُ وَأَوْلَادُهُ وَجِيرَانُهُ حَتَّى الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ امْرَأَتِي وَدَابَّتِي.

وَكَذَلِكَ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ أَوْلِيَاءُ الْأَمْرِ بِالْعُقُوبَةِ الَّتِي إِنْ عَدَلُوا فِيهَا أَقَامُوا عَلَيْهِ حُدُودَ اللَّهِ،وَتَجْتَرِئُ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَتَتَأَسَّدُ عَلَيْهِ وَتَصْعُبُ عَلَيْهِ،فَلَوْ أَرَادَهَا لِخَيْرٍ لَمْ تُطَاوِعْهُ وَلَمْ تَنْقَدْ لَهُ،وَتَسُوقُهُ إِلَى مَا فِيهِ هَلَاكُهُ،شَاءَ أَمْ أَبِي.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّاعَةَ حِصْنُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْآمِنِينَ،فَإِذَا فَارَقَ الْحِصْنَ اجْتَرَأَ عَلَيْهِ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ وَغَيْرُهُمْ،وَعَلَى حَسَبِ اجْتِرَائِهِ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ يَكُونُ اجْتِرَاءُ هَذِهِ الْآفَاتِ وَالنُّفُوسِ عَلَيْهِ،وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يَرُدُّ عَنْهُ.فَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ وَطَاعَتَهُ وَالصَّدَقَةَ وَإِرْشَادَ الْجَاهِلِ،وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ - وِقَايَةٌ تَرُدُّ عَنِ الْعَبْدِ،بِمَنْزِلَةِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَرُدُّ الْمَرَضَ وَتُقَاوِمُهُ،فَإِذَا سَقَطَتِ الْقُوَّةُ غَلَبَ وَارِدُ الْمَرَضِ فَكَانَ الْهَلَاكُ،فَلَابُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ شَيْءٍ يَرُدُّ عَنْهُ،فَإِنَّ مُوجِبَ السَّيِّئَاتِ وَالْحَسَنَاتِ تَتَدَافَعُ وَيَكُونُ الْحُكْمُ لِلْغَالِبِ كَمَا تَقَدَّمَ،وَكُلَّمَا قَوِيَ جَانِبُ الْحَسَنَاتِ كَانَ الرَّدُّ أَقْوَى كَمَا تَقَدَّمَ،فَإِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا،وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ،فَبِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ يَكُونُ الدَّفْعُ،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الْمَعَاصِي تُضْعِفُ الْعَبْدَ أَمَامَ نَفْسِهِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تَخُونُ الْعَبْدَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ،فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ،وَأَعْلَمُ النَّاسِ أَعْرَفُهُمْ بِذَلِكَ عَلَى التَّفْصِيلِ،وَأَقْوَاهُمْ وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ قَوِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَإِرَادَتِهِ،فَاسْتَعْمَلَهَا فِيمَا يَنْفَعُهُ وَكَفَّهَا عَمَّا يَضُرُّهُ،

وَفِي ذَلِكَ تَتَفَاوَتُ مَعَارِفُ النَّاسِ وَهِمَمُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ،فَأَعْرَفُهُمْ مَنْ كَانَ عَارِفًا بِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ،وَأَرْشَدُهُمْ مَنْ آثَرَ هَذِهِ عَلَى هَذِهِ،كَمَا أَنَّ أَسْفَهَهُمْ مَنْ عَكَسَ الْأَمْرَ.

وَالْمَعَاصِي تَخُونُ الْعَبْدَ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَى نَفْسِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْعِلْمِ،وَإِيثَارِ الْحَظِّ الْأَشْرَفِ الْعَالِي الدَّائِمِ عَلَى الْحَظِّ الْخَسِيسِ الْأَدْنَى الْمُنْقَطِعِ،فَتَحْجُبُهُ الذُّنُوبُ عَنْ كَمَالِ هَذَا الْعِلْمِ،وَعَنِ الِاشْتِغَالِ بِمَا هُوَ أَوْلَى بِهِ،وَأَنْفَعُ لَهُ فِي الدَّارَيْنِ.

فَإِذَا وَقَعَ مَكْرُوهٌ وَاحْتَاجَ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ،خَانَهُ قَلْبُهُ وَنَفْسُهُ وَجَوَارِحُهُ،وَكَانَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مَعَهُ سَيْفٌ قَدْ غَشِيَهُ الصَّدَأُ وَلَزِمَ قِرَابَهُ،بِحَيْثُ لَا يَنْجَذِبُ مَعَ صَاحِبِهِ إِذَا

جَذَبَهُ،فَعَرَضَ لَهُ عَدُوٌّ يُرِيدُ قَتْلَهُ،فَوَضَعَ يَدِهِ عَلَى قَائِمِ سَيْفِهِ وَاجْتَهَدَ لِيُخْرِجَهُ،فَلَمْ يَخْرُجْ مَعَهُ،فَدَهَمَهُ الْعَدُوُّ وَظَفِرَ بِهِ.

كَذَلِكَ الْقَلْبُ يَصْدَأُ بِالذُّنُوبِ وَيَصِيرُ مُثْخَنًا بِالْمَرَضِ،فَإِذَا احْتَاجَ إِلَى مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ لَمْ يَجِدْ مَعَهُ مِنْهُ شَيْئًا،وَالْعَبْدُ إِنَّمَا يُحَارِبُ وَيُصَاوِلُ وَيُقْدِمُ بِقَلْبِهِ،وَالْجَوَارِحُ تَبَعٌ لِلْقَلْبِ،فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ مَلِكِهَا قُوَّةٌ يَدْفَعُ بِهَا،فَمَا الظَّنُّ بِهَا؟

وَكَذَلِكَ النَّفْسُ فَإِنَّهَا تَخْبُثُ بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَعَاصِي وَتَضْعُفُ،أَعْنِي النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ،وَإِنْ كَانَتِ الْأَمَّارَةُ تَقْوَى وَتَتَأَسَّدُ،وَكُلَّمَا قَوِيَتْ هَذِهِ ضَعُفَتْ تِلْكَ،فَيَبْقَى الْحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ لِلْأَمَّارَةِ.

وَرُبَّمَا مَاتَتْ نَفْسُهُ الْمُطْمَئِنَّةُ مَوْتًا لَا يُرْتَجَى مَعَهُ حَيَاةٌ يَنْتَفِعُ بِهَا،بَلْ حَيَاتُهُ حَيَاةٌ يُدْرِكُ بِهَا الْأَلَمَ فَقَطْ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَقَعَ فِي شِدَّةٍ أَوْ كُرْبَةٍ أَوْ بَلِيَّةٍ خَانَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَجَوَارِحُهُ عَمَّا هُوَ أَنْفَعُ شَيْءٍ لَهُ،فَلَا يَنْجَذِبُ قَلْبُهُ لِلتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ وَالْجَمْعِيَّةِ عَلَيْهِ وَالتَّضَرُّعِ وَالتَّذَلُّلِ وَالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ،وَلَا يُطَاوِعُهُ لِسَانُهُ لِذِكْرِهِ،وَإِنْ ذَكَرَهُ بِلِسَانِهِ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ،فَيَنْحَبِسُ الْقَلْبُ عَلَى اللِّسَانِ بِحَيْثُ يُؤَثِّرُ الذِّكْرُ،وَلَا يَنْحَبِسُ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ عَلَى الذِّكْرِ،بَلْ إِنْ ذَكَرَ أَوْ دَعَا ذَكَرَ بِقَلْبٍ لَاهٍ سَاهٍ غَافِلٍ،وَلَوْ أَرَادَ مِنْ جَوَارِحِهِ أَنْ تُعِينَهُ بِطَاعَةٍ تَدْفَعُ عَنْهُ لَمْ تَنْقَدْ لَهُ وَلَمْ تُطَاوِعْهُ.

وَهَذَا كُلُّهُ أَثَرُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي كَمَنْ لَهُ جُنْدٌ يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَعْدَاءَ،فَأَهْمَلَ جُنْدَهُ،وَضَيَّعَهُمْ،وَأَضْعَفَهُمْ،وَقَطَعَ أَخْبَارَهُمْ،ثُمَّ أَرَادَ مِنْهُمْ عِنْدَ هُجُومِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَفْرِغُوا وُسْعَهُمْ فِي الدَّفْعِ عَنْهُ بِغَيْرِ قُوَّةٍ.

هَذَا،وَثَمَّ أَمْرٌ أَخْوَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَدْهَى مِنْهُ وَأَمَرُّ،وَهُوَ أَنْ يَخُونَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ وَالِانْتِقَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،فَرُبَّمَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ النُّطْقُ بِالشَّهَادَةِ،كَمَا شَاهَدَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْمُحْتَضَرِينَ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ،حَتَّى قِيلَ لِبَعْضِهِمْ:قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَقَالَ:آهْ آهْ،لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ:قُلْ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَقَالَ:شَاهْ رُخْ،غَلَبْتُكَ.ثُمَّ قَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ:قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَقَالَ:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ تَعِبَتْ ...أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ

ثُمَّ قَضَى.[١٩٠]

وَقِيلَ لِآخَرَ:قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَجَعَلَ يَهْذِي بِالْغِنَاءِ وَيَقُولُ:تَاتَنَا تِنْتَا.حَتَّى قَضَى

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ،فَقَالَ:وَمَا يَنْفَعُنِي مَا تَقُولُ وَلَمْ أَدَعْ مَعْصِيَةً إِلَّا رَكِبْتُهَا؟ ثُمَّ قَضَى وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ،فَقَالَ:وَمَا يُغْنِي عَنِّي،وَمَا أَعْرِفُ أَنِّي صَلَّيْتُ لِلَّهِ صَلَاةً؟ ثُمَّ قَضَى وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ،فَقَالَ:هُوَ كَافِرٌ بِمَا تَقُولُ.وَقَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ،فَقَالَ:كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهَا لِسَانِي يُمْسِكُ عَنْهَا.

وَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَ بَعْضَ الشَّحَّاذِينَ عِنْدَ مَوْتِهِ،فَجَعَلَ يَقُولُ:لِلَّهِ،فِلْسٌ لِلَّهِ.حَتَّى قَضَى.

وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ التُّجَّارِ عَنْ قَرَابَةٍ لَهُ أَنَّهُ احْتُضِرَ وَهُوَ عِنْدَهُ،وَجَعَلُوا يُلَقِّنُونَهُ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَهُوَ يَقُولُ:هَذِهِ الْقِطْعَةُ رَخِيصَةٌ،هَذَا مُشْتَرٍ جَيِّدٌ،هَذِهِ كَذَا.حَتَّى قَضَى.

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ شَاهَدَ النَّاسُ مِنْ هَذَا عِبَرًا؟ وَالَّذِي يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْمُحْتَضِرِينَ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ فِي حَالِ حُضُورِ ذِهْنِهِ وَقُوَّتِهِ وَكَمَالِ إِدْرَاكِهِ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ،وَاسْتَعْمَلَهُ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ،وَقَدْ أَغْفَلَ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى،وَعَطَّلَ لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَجَوَارِحَهُ عَنْ طَاعَتِهِ،فَكَيْفَ الظَّنُّ بِهِ عِنْدَ سُقُوطِ قُوَاهُ وَاشْتِغَالِ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَلَمِ النَّزْعِ؟

وَجَمَعَ الشَّيْطَانُ لَهُ كُلَّ قُوَّتِهِ وَهِمَّتِهِ،وَحَشَدَ عَلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِيَنَالَ مِنْهُ فُرْصَتَهُ،فَإِنَّ ذَلِكَ آخِرُ الْعَمَلِ،فَأَقْوَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ ذَلِكَ الْوَقْتِ،وَأَضْعَفُ مَا يَكُونُ هُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ،فَمَنْ تُرَى يَسْلَمُ عَلَى ذَلِكَ؟ فَهُنَاكَ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

---

[١٩٠] – شعب الإيمان (٨/ ٤٨٥)(٦١٢١)

بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ:٢٧] .

فَكَيْفَ يُوَفَّقُ بِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ مَنْ أَغْفَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا.فَبَعِيدٌ مَنْ قَلْبُهُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى،غَافِلٌ عَنْهُ مُتَعَبِّدٌ لِهَوَاهُ أَسِيرٌ لِشَهَوَاتِهِ،وَلِسَانُهُ يَابِسٌ مِنْ ذِكْرِهِ،وَجَوَارِحُهُ مُعَطَّلَةٌ مِنْ طَاعَتِهِ مُشْتَغِلَةٌ بِمَعْصِيَتِهِ – أَنْ يُوَفَّقَ لِلْخَاتِمَةِ بِالْحُسْنَى.

وَلَقَدْ قَطَعَ خَوْفُ الْخَاتِمَةِ ظُهُورَ الْمُتَّقِينَ،وَكَأَنَّ الْمُسِيئِينَ الظَّالِمِينَ قَدْ أَخَذُوا تَوْقِيعًا بِالْأَمَانِ {أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ – سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ} [سُورَةُ الْقَلَمِ:٣٩ – ٤٠]

كَمَا قِيلَ:[١٩١]

يَا آمِنًا مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ مِنْهُ أَهَلْ ...أَتَاكَ تَوْقِيعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَمْلِكُهُ

جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ أَمْنًا وَاتِّبَاعَ هَوًى ...هَذَا وَإِحْدَاهُمَا فِي الْمَرْءِ تُهْلِكُهُ

وَالْمُحْسِنُونَ عَلَى دَرْبِ الْمَخَاوِفِ قَدْ ...سَارُوا وَذَلِكَ دَرْبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ

فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ الْبَذْرِ مِنْ سَفَهٍ ...فَكَيْفَ عِنْدَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ

هَذَا وَأَعْجَبُ شَيْءٍ مِنْكَ زُهْدُكَ فِي ...دَارِ الْبَقَاءِ بِعَيْشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ

مَنِ السَّفِيهُ إِذَا بِاللَّهِ أَنْتَ أَمِ الْ ...مَغْبُونُ فِي الْبَيْعِ غَبْنًا سَوْفَ يُدْرِكُهُ

الْمَعَاصِي تُعْمِي الْقَلْبَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُعْمِي الْقَلْبَ،فَإِنْ لَمْ تُعْمِهِ أَضْعَفَتْ بَصِيرَتَهُ وَلَابُدَّ،وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ أَنَّهَا تُضْعِفُهُ وَلَابُدَّ،فَإِذَا عَمِيَ الْقَلْبُ وَضَعُفَ،فَاتَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْهُدَى وَقُوَّتِهِ عَلَى تَنْفِيذِهِ فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ،بِحَسَبِ ضَعْفِ بَصِيرَتِهِ وَقُوَّتِهِ.

فَإِنَّ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِيَّ مَدَارُهُ عَلَى أَصْلَيْنِ:مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ،وَإِيثَارِهِ عَلَيْهِ.

وَمَا تَفَاوَتَتْ مَنَازِلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِقَدْرِ تَفَاوُتِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ،وَهُمَا اللَّذَانِ أَثْنَى اللَّهُ بِهِمَا سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِهِمَا فِي قَوْلِهِ

---

[١٩١] – موسوعة الشعر الإسلامي (٣٣٩/ ١١٨)

تَعَالَى:{وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} [سُورَةُ ص:٤٥] .

فَالْأَيْدِي:الْقُوَّةُ فِي تَنْفِيذِ الْحَقِّ،وَالْأَبْصَارُ:الْبَصَائِرُ فِي الدِّينِ،فَوَصَفَهُمْ بِكَمَالِ إِدْرَاكِ الْحَقِّ وَكَمَالِ تَنْفِيذِهِ،وَانْقَسَمَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ،فَهَؤُلَاءِ أَشْرَفُ الْأَقْسَامِ مِنَ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

الْقِسْمُ الثَّانِي:عَكْسُ هَؤُلَاءِ،مَنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي الدِّينِ،وَلَا قُوَّةَ عَلَى تَنْفِيذِ الْحَقِّ،وَهُمْ أَكْثَرُ هَذَا الْخَلْقِ،وَهُمُ الَّذِينَ رُؤْيَتُهُمْ قَذَى الْعُيُونِ وَحُمَّى الْأَرْوَاحِ وَسَقَمُ الْقُلُوبِ،يُضَيِّقُونَ الدِّيَارَ وَيُغْلُونَ الْأَسْعَارَ،وَلَا يُسْتَفَادُ مِنْ صُحْبَتِهِمْ إِلَّا الْعَارُ وَالشَّنَارُ.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ:مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ بِالْحَقِّ وَمَعْرِفَةٌ بِهِ،لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ لَا قُوَّةَ لَهُ عَلَى تَنْفِيذِهِ وَلَا الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ،وَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ،وَالْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ.

الْقِسْمُ الرَّابِعُ:مَنْ لَهُ قُوَّةٌ وَهِمَّةٌ وَعَزِيمَةٌ،لَكِنَّهُ ضَعِيفُ الْبَصِيرَةِ فِي الدِّينِ،لَا يَكَادُ يُمَيِّزُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ،بَلْ يَحْسَبُ كُلَّ سَوْدَاءَ تَمْرَةً وَكُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً،يَحْسَبُ الْوَرَمَ شَحْمًا وَالدَّوَاءَ النَّافِعَ سُمًّا.

وَلَيْسَ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ،وَلَا هُوَ مَوْضِعٌ لَهَا سِوَى الْقِسْمِ الْأَوَّلِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [سُورَةُ السَّجْدَةِ:٢٤] .

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ نَالُوا الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ،وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ اسْتَثْنَاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْخَاسِرِينَ،وَأَقْسَمَ بِالْعَصْرِ - الَّذِي هُوَ زَمَنُ سَعْيِ الْخَاسِرِينَ وَالرَّابِحِينَ - عَلَى أَنَّ مَنْ عَدَاهُمْ فَهُوَ مِنَ الْخَاسِرِينَ،فَقَالَ تَعَالَى {وَالْعَصْرِ - إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ - إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [الْعَصْرِ:١ - ٣] .

وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ،حَتَّى يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهِ وَيُرْشِدَهُ إِلَيْهِ وَيَحُضَّهُ عَلَيْهِ.

وَإِذَا كَانَ مَنْ عَدَا هَؤُلَاءِ فَهُوَ خَاسِرٌ،فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَعَاصِيَ وَالذُّنُوبَ تُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ فَلَا يُدْرِكُ الْحَقَّ كَمَا يَنْبَغِي،وَتَضْعُفُ قُوَّتُهُ وَعَزِيمَتُهُ فَلَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ،بَلْ قَدْ يَتَوَارَدُ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى يَنْعَكِسَ إِدْرَاكُهُ كَمَا يَنْعَكِسُ سَيْرُهُ،فَيُدْرِكُ الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا،وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا،فَيَنْتَكِسُ فِي سَيْرِهِ وَيَرْجِعُ عَنْ سَفَرِهِ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ،إِلَى سَفَرِهِ إِلَى مُسْتَقَرِّ النُّفُوسِ الْمُبْطِلَةِ الَّتِي رَضِيَتْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا،وَاطْمَأَنَّتْ بِهَا،وَغَفَلَتْ عَنِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ،وَتَرَكَتْ الِاسْتِعْدَادَ لِلِقَائِهِ،وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عُقُوبَةِ الذُّنُوبِ إِلَّا هَذِهِ وَحْدَهَا لَكَانَتْ دَاعِيَةً إِلَى تَرْكِهَا وَالْبُعْدِ مِنْهَا،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تُنَوِّرُ الْقَلْبَ وَتَجْلُوهُ وَتَصْقُلُهُ،وَتُقَوِّيهِ وَتُثَبِّتُهُ حَتَّى يَصِيرَ كَالْمِرْآةِ الْمَجْلُوَّةِ فِي جَلَائِهَا وَصَفَائِهَا فَيَمْتَلِئَ نُورًا،فَإِذَا دَنَا الشَّيْطَانُ مِنْهُ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ مَا يُصِيبُ مُسْتَرِقَ السَّمْعِ مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ،فَالشَّيْطَانُ يَفْرَقُ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ أَشَدَّ مِنْ فَرَقِ الذِّئْبِ مِنَ الْأَسَدِ،حَتَّى إِنَّ صَاحِبَهُ لَيَصْرَعُ الشَّيْطَانَ فَيَخِرُّ صَرِيعًا،فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ،فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:مَا شَأْنُهُ؟ فَيُقَالُ:أَصَابَهُ إِنْسِيٌّ،وَبِهِ نَظْرَةٌ مِنَ الْإِنْسِ:

فَيَا نَظْرَةً مِنْ قَلْبٍ حُرٍّ مُنَوَّرٍ ...يَكَادُ لَهَا الشَّيْطَانُ بِالنُّورِ يُحْرَقُ

أَفَيَسْتَوِي هَذَا الْقَلْبُ وَقَلْبٌ مُظْلِمٌ أَرْجَاؤُهُ،مُخْتَلِفَةٌ أَهْوَاؤُهُ،قَدِ اتَّخَذَهُ الشَّيْطَانُ وَطَنَهُ وَأَعَدَّهُ مَسْكَنَهُ،إِذَا تَصَبَّحَ بِطَلْعَتِهِ حَيَّاهُ،وَقَالَ:فَدَيْتُ مَنْ لَا يُفْلِحُ فِي دُنْيَاهُ وَلَا فِي أُخْرَاهُ؟

قَرِينُكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْحَشْرِ بَعْدَهَا ...فَأَنْتَ قَرِينٌ لِي بِكُلِّ مَكَانِ

فَإِنْ كُنْتَ فِي دَارِ الشَّقَاءِ فَإِنَّنِي ...وَأَنْتَ جَمِيعًا فِي شَقَا وَهَوَانِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ - وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ - حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ - وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [سُورَةُ الزُّخْرُف:٣٦ - ٣٩] .

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ عَشِيَ عَنْ ذِكْرِهِ،وَهُوَ كِتَابُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ،فَأَعْرَضَ عَنْهُ،وَعَمِيَ عَنْهُ،وَعَشَتْ بَصِيرَتُهُ عَنْ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَمَعْرِفَةِ مُرَادِ اللَّهِ مِنْهُ - قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ

شَيْطَانًا عُقُوبَةً لَهُ بِإِعْرَاضِهِ عَنْ كِتَابِهِ،فَهُوَ قَرِينُهُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ فِي الْإِقَامَةِ وَلَا فِي الْمَسِيرِ،وَمَوْلَاهُ وَعَشِيرُهُ الَّذِي هُوَ بِئْسَ الْمَوْلَى وَبِئْسَ الْعَشِيرُ.

رَضِيعَا لِبَانِ ثَدْيِ أُمٍّ تَقَاسَمَا ...بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَصُدُّ قَرِينَهُ وَوَلِيَّهُ عَنْ سَبِيلِهِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ وَإِلَى جَنَّتِهِ،وَيَحْسَبُ هَذَا الضَّالُّ الْمَصْدُودُ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ هُدًى،حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَرِينَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ:{يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} كُنْتَ لِي فِي الدُّنْيَا،أَضْلَلْتَنِي عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي،وَصَدَدْتَنِي عَنِ الْحَقِّ وَأَغْوَيْتَنِي حَتَّى هَلَكْتُ،وَبِئْسَ الْقَرِينُ أَنْتَ لِي الْيَوْمَ.

وَلَمَّا كَانَ الْمُصَابُ إِذَا شَارَكَهُ غَيْرُهُ فِي مُصِيبَةٍ،حَصَلَ لَهُ بِالتَّأَسِّي نَوْعُ تَخْفِيفٍ وَتَسْلِيَةٍ،أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ وَغَيْرُ حَاصِلٍ فِي حَقِّ الْمُشْتَرِكِينَ فِي الْعَذَابِ،وَأَنَّ الْقَرِينَ لَا يَجِدُ رَاحَةً وَلَا أَدْنَى فَرَحٍ بِعَذَابِ قَرِينِهِ مَعَهُ،وَإِنْ كَانَتِ الْمَصَائِبُ فِي الدُّنْيَا إِذَا عَمَّتْ صَارَتْ مَسْلَاةً،كَمَا قَالَتِ الْخَنْسَاءُ فِي أَخِيهَا صَخْرٍ:[١٩٢]

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ...عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ...أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

فَمَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الرَّاحَةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَقَالَ:{وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [سُورَةُ الزُّخْرُفِ:٣٩]

الْمَعَاصِي عَدُوٌّ لَدُودٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا مَدَدٌ مِنَ الْإِنْسَانِ يَمُدُّ بِهِ عَدُوَّهُ عَلَيْهِ،وَجَيْشٌ يُقَوِّيهِ بِهِ عَلَى حَرْبِهِ،وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ابْتَلَى هَذَا الْإِنْسَانَ بِعَدُوٍّ لَا يُفَارِقُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ،وَلَا يَنَامُ مِنْهُ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهُ،يَرَاهُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ،يَبْذُلُ جَهْدَهُ فِي مُعَادَاتِهِ فِي كُلِّ حَالٍ،وَلَا يَدَعُ أَمْرًا

---

[١٩٢] – موسوعة الشعر الإسلامي (٧٥٩/ ١) وتسلية أهل المصائب (ص: ٢١) وموسوعة الرقائق والأدب – ياسر الحمداني (ص: ١١٩٠،بترقيم الشاملة آليا) والبديع في نقد الشعر (ص: ٥٦) والسحر الحلال في الحكم والأمثال (ص: ٧١) وزهر الأكم في الأمثال والحكم (ص: ٣٣٨،بترقيم الشاملة آليا) ونهاية الأرب في فنون الأدب (٥/ ١٧٩)

يَكِيدُهُ بِهِ يَقْدِرُ عَلَى إِيصَالِهِ إِلَيْهِ إِلَّا أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ،وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِبَنِي جِنْسِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ،وَغَيْرِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ،فَقَدْ نَصَبَ لَهُ الْحَبَائِلَ،وَبَغَى لَهُ الْغَوَائِلَ،وَمَدَّ حَوْلَهُ الْأَشْرَاكَ،وَنَصَبَ لَهُ الْفِخَاخَ وَالشِّبَاكَ،وَقَالَ لِأَعْوَانِهِ:دُونَكُمْ عَدُوَّكُمْ وَعَدُوَّ أَبِيكُمْ لَا يَفُوتُكُمْ وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ الْجَنَّةَ وَحَظُّكُمُ النَّارَ،وَنَصِيبُهُ الرَّحْمَةَ وَنَصِيبُكُمُ اللَّعْنَةَ،وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَا جَرَى عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْإِبْعَادِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِسَبَبِهِ وَمِنْ أَجْلِهِ،فَابْذُلُوا جَهْدَكُمْ أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَنَا فِي هَذِهِ الْبَلِيَّةِ،إِذْ قَدْ فَاتَنَا شَرِكَةُ صَالِحِيهِمْ فِي الْجَنَّةِ.وَقَدْ أَعْلَمَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ عَدُوِّنَا وَأَمَرَنَا أَنْ نَأْخُذَ لَهُ أُهْبَتَهُ وَنُعِدَّ لَهُ عُدَّتَهُ.

وَلَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ أَنَّ آدَمَ وَبَنِيهِ قَدْ بُلُوا بِهَذَا الْعَدُوِّ وَأَنَّهُ قَدْ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ أَمَدَهُمْ بِعَسَاكِرَ وَجُنْدٍ يَلْقَوْنَهُمْ بِهَا،وَأَمَدَّ عَدُوَّهُمْ أَيْضًا بِجُنْدٍ وَعَسَاكِرَ يَلْقَاهُمْ بِهَا،وَأَقَامَ سُوقَ الْجِهَادِ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي مُدَّةِ الْعُمُرِ الَّتِي هِيَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْآخِرَةِ كَنَفَسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْفَاسِهَا،وَاشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ،وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ وَعْدٌ مُؤَكَّدٌ عَلَيْهِ فِي أَشْرَفِ كُتُبِهِ،وَهِيَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ،وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ،ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَبْشِرُوا بِهَذِهِ الصَّفْقَةِ الَّتِي مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهَا فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْمُشْتَرِي مَنْ هُوَ؟ وَإِلَى الثَّمَنِ الْمَبْذُولِ فِي هَذِهِ السِّلْعَةِ،وَإِلَى مَنْ جَرَى عَلَى يَدَيْهِ هَذَا الْعَقْدُ،فَأَيُّ فَوْزٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ تِجَارَةٍ أَرْبَحُ مِنْهُ؟

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ هَذَا الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ - تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ - يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ - وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سُورَةُ الصَّفِّ:١٠ - ١٣] .

وَلَمْ يُسَلِّطْ سُبْحَانَهُ هَذَا الْعَدُوَّ عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي هُوَ أَحَبُّ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَيْهِ،إِلَّا لِأَنَّ الْجِهَادَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ،وَأَهْلَهُ أَرْفَعُ الْخَلْقِ عِنْدَهُ دَرَجَاتٍ،وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ وَسِيلَةً،فَعَقَدَ سُبْحَانَهُ لِوَاءَ هَذِهِ الْحَرْبِ لِخُلَاصَةِ مَخْلُوقَاتِهِ،وَهُوَ الْقَلْبُ الَّذِي مَحَلُّ مَعْرِفَتِهِ

وَمَحَبَّتِه،وَعُبُودِيَّتِه وَالْإِخْلَاصِ لَهُ،وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ،فَوَلَّاهُ أَمْرَ هَذِهِ الْحَرْبِ،وَأَيَّدَهُ بِجُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُفَارِقُونَهُ {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [سُورَةُ الرَّعْد:١١] .

يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،كُلَّمَا ذَهَبَ بَدَلٌ جَاءَ بَدَلٌ آخَرُ يُثَبِّتُونَهُ وَيَأْمُرُونَهُ بِالْخَيْرِ وَيَحُضُّونَهُ عَلَيْهِ،وَيَعِدُونَهُ بِكَرَامَةِ اللَّهِ وَيُصَبِّرُونَهُ،وَيَقُولُونَ:إِنَّمَا هُوَ صَبْرُ سَاعَةٍ وَقَدِ اسْتَرَحْتَ رَاحَةَ الْأَبَدِ.

ثُمَّ أَمَدَّهُ سُبْحَانَهُ بِجُنْدٍ آخَرَ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِه،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولَهُ - ﷺ - وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ،فَازْدَادَ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِه،وَمَدَدًا إِلَى مَدَدِه،وَعُدَّةً إِلَى عُدَّتِه،وَأَمَدَّهُ مَعَ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ وَزِيرًا لَهُ وَمُدَبِّرًا،وَبِالْمَعْرِفَةِ مُشِيرَةً عَلَيْهِ نَاصِحَةً لَهُ،وَبِالْإِيمَانِ مُثَبِّتًا لَهُ وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا،وَبِالْيَقِينِ كَاشِفًا لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ،حَتَّى كَأَنَّهُ يُعَايِنُ مَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَاءَهُ وَحِزْبَهُ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِه،فَالْعَقْلُ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَيْشِه،وَالْمَعْرِفَةُ تَصْنَعُ لَهُ أُمُورَ الْحَرْبِ وَأَسْبَابَهَا وَمَوَاضِعَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا،وَالْإِيمَانُ يُثَبِّتُهُ وَيُقَوِّيه وَيُصَبِّرُهُ،وَالْيَقِينُ يُقْدِمُ بِه وَيَحْمِلُ بِه الْحَمَلَاتِ الصَّادِقَةَ.

ثُمَّ أَمَدَّ سُبْحَانَهُ الْقَائِمَ بِهَذِهِ الْحَرْبِ بِالْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ،فَجَعَلَ الْعَيْنَ طَلِيعَتَهُ،وَالْأُذُنَ صَاحِبَ خَبَرِه،وَاللِّسَانَ تُرْجُمَانَهُ،وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ أَعْوَانَهُ،وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَةَ عَرْشِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْأَلُونَ لَهُ أَنْ يَقِيَهُ السَّيِّئَاتِ وَيُدْخِلَهُ الْجَنَّاتِ،وَتَوَلَّى سُبْحَانَهُ الدَّفْعَ وَالدِّفَاعَ عَنْهُ بِنَفْسِه وَقَالَ:هَؤُلَاءِ حِزْبِي،وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الْمُجَادَلَة:٢٢] .

وَهَؤُلَاءِ جُنْدِي {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [سُورَةُ الصَّافَّات:١٧٣] .

وَعَلَّمَ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ،فَجَمَعَهَا لَهُمْ فِي أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ:٢٠٠] .

وَلَا يَتِمُّ أَمْرُ هَذَا الْجِهَادِ إِلَّا بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ،فَلَا يَتِمُّ الصَّبْرُ إِلَّا بِمُصَابَرَةِ الْعَدُوِّ،وَهُوَ مُقَاوَمَتُهُ وَمُنَازَلَتُهُ،فَإِذَا صَابَرَ عَدُوَّهُ احْتَاجَ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ وَهِيَ الْمُرَابَطَةُ،وَهِيَ لُزُومُ ثَغْرِ الْقَلْبِ وَحِرَاسَتُهُ لِئَلَّا يَدْخُلَ مِنْهُ الْعَدُوُّ،وَلُزُومُ ثَغْرِ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَالْيَدِ

وَالرِّجْلِ،فَهَذِه الثُّغُورُ يَدْخُلُ مِنْهَا الْعَدُوُّ فَيَجُوسُ خِلَالَ الدِّيَارِ وَيُفْسِدُ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ،فَالْمُرَابَطَةُ لُزُومُ هَذِهِ الثُّغُورِ،وَلَا يُخَلِّي مَكَانَهَا فَيُصَادِفَ الْعَدُوُّ الثَّغْرَ خَالِيًا فَيَدْخُلَ مِنْهُ.

فَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ،وَأَعْظَمُهُمْ حِمَايَةً وَحِرَاسَةً مِنَ الشَّيْطَانِ،وَقَدْ أَخْلَوُا الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرُوا بِلُزُومِهِ يَوْمَ أُحُدٍ،فَدَخَلَ مِنْهُ الْعَدُوُّ،فَكَانَ مَا كَانَ.

وَجِمَاعُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ وَعَمُودُهَا الَّذِي تَقُومُ بِهِ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى،فَلَا يَنْفَعُ الصَّبْرُ وَلَا الْمُصَابَرَةُ وَلَا الْمُرَابَطَةُ إِلَّا بِالتَّقْوَى،وَلَا تَقُومُ التَّقْوَى إِلَّا عَلَى سَاقِ الصَّبْرِ.

الْتِقَاءُ الْجَيْشَيْنِ فَانْظُرِ الْآنَ فِيكَ إِلَى الْتِقَاءِ الْجَيْشَيْنِ،وَاصْطِدَامِ الْعَسْكَرَيْنِ وَكَيْفَ تُدَالُ مَرَّةً،وَيُدَالُ عَلَيْكَ أُخْرَى؟ أَقْبَلَ مَلِكُ الْكَفَرَةِ بِجُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ،فَوَجَدَ الْقَلْبَ فِي حِصْنِهِ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِهِ،أَمْرُهُ نَافِذٌ فِي أَعْوَانِهِ،وَجُنْدُهُ قَدْ حَفُّوا بِهِ،يُقَاتِلُونَ عَنْهُ وَيُدَافِعُونَ عَنْ حَوْزَتِهِ،فَلَمْ يُمْكِنْهُمُ الْهُجُومُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمُخَامَرَةِ بَعْضِ أُمَرَائِهِ وَجُنْدِهِ عَلَيْهِ،فَسَأَلَ عَنْ أَخَصِّ الْجُنْدِ بِهِ وَأَقْرَبِهِمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً،فَقِيلَ لَهُ:هِيَ النَّفْسُ،فَقَالَ لِأَعْوَانِهِ:ادْخُلُوا عَلَيْهَا مِنْ مُرَادِهَا،وَانْظُرُوا مَوَاقِعَ مَحَبَّتِهَا وَمَا هُوَ مَحْبُوبُهَا فَعِدُوهَا بِهِ وَمَنُّوهَا إِيَّاهُ وَانْقُشُوا صُورَةَ الْمَحْبُوبِ فِيهَا فِي يَقَظَتِهَا وَمَنَامِهَا،فَإِذَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ وَسَكَنَتْ عِنْدَهُ فَاطْرَحُوا عَلَيْهَا كَلَالِيبَ الشَّهْوَةِ وَخَطَاطِيفَهَا،ثُمَّ جُرُّوهَا بِهَا إِلَيْكُمْ،فَإِذَا خَامَرَتْ عَلَى الْقَلْبِ وَصَارَتْ مَعَكُمْ عَلَيْهِ مَلَكْتُمْ ثَغْرَ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ

وَاللِّسَانِ وَالْفَمِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ،فَرَابِطُوا عَلَى هَذَا الثُّغُورِ كُلَّ الْمُرَابَطَةِ،فَمَتَى دَخَلْتُمْ مِنْهَا إِلَى الْقَلْبِ فَهُوَ قَتِيلٌ أَوْ أَسِيرٌ،أَوْ جَرِيحٌ مُثْخَنٌ بِالْجِرَاحَاتِ،وَلَا تُخْلُوا هَذِهِ الثُّغُورَ،وَلَا تُمَكِّنُوا سَرِيَّةً تَدْخُلُ فِيهَا إِلَى الْقَلْبِ فَتُخْرِجَكُمْ مِنْهَا،وَإِنْ غُلِبْتُمْ فَاجْتَهِدُوا فِي إِضْعَافِ السَّرِيَّةِ وَوَهَنِهَا،حَتَّى لَا تَصِلَ إِلَى الْقَلْبِ،فَإِنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ وَصَلَتْ ضَعِيفَةً لَا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا.

(هذا هوَ)[193] ثَغْرُ الْعَيْنِ فَإِذَا اسْتَوْلَيْتُمْ عَلَى هَذِهِ الثُّغُورِ فَامْنَعُوا ثَغْرَ الْعَيْنِ أَنْ يَكُونَ نَظَـرُهُ اعْتِبَارًا،بَلِ اجْعَلُوا نَظَرَهُ تَفَرُّجًا وَاسْتِحْسَانًا وَتَلَهِّيًا،فَإِن اسْتَرَقَ نَظَرُهُ عِبْرَةً فَأَفْسِدُوهَا عَلَيْهِ بِنَظَرِ الْغَفْلَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ وَالشَّهْوَةِ،فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَأَعْلَقُ بِنَفْسِهِ وَأَخَفُّ عَلَيْهِ،وَدُونَكُمْ ثَغْرَ الْعَيْنِ،فَإِنَّ مِنْهُ تَنَالُونَ بُغْيَتَكُمْ،فَإِنِّي مَا أَفْسَدْتُ بَنِي آدَمَ بِشَيْءٍ مِثْلِ النَّظَرِ،فَإِنِّي أَبْذُرُ بِهِ فِي الْقَلْبِ بَذْرَ الشَّهْوَةِ،ثُمَّ أَسْقِيهِ بِمَاءِ الْأُمْنِيَّةِ،ثُمَّ لَا أَزَالُ أَعِدُهُ وَأُمَنِّيهِ حَتَّـى أُقَـوِّيَ عَزِيمَتَـهُ وَأَقُودَهُ بِزِمَامِ الشَّهْوَةِ إِلَى الِانْخِلَاعِ مِنَ الْعِصْمَةِ،فَلَا تُهْمِلُوا أَمْرَ هَـذَا الثَّغْـرِ وَأَفْسِـدُوهُ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ،وَهَوِّنُوا عَلَيْهِ أَمْرَهُ،وَقُولُوا لَهُ:مِقْدَارُ نَظْرَةٍ تَدْعُوكَ إِلَى تَسْبِيحِ الْخَالِقِ وَالتَّأَمُّلِ لِبَدِيعِ صَنِيعِهِ،وَحُسْنِ هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي إِنَّمَا خُلِقَتْ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا النَّاظِرُ عَلَيْـهِ،وَمَا خَلَقَ اللَّهُ لَكَ الْعَيْنَيْنِ سُدًى،وَمَا خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ الصُّورَةَ لِيَحْجُبَهَا عَنِ النَّظَرِ،وَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ قَلِيلَ الْعِلْمِ فَاسِدَ الْعَقْلِ،فَقُولُوا لَهُ:هَذِهِ الصُّورَةُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَـقِّ وَمَجْلًـى مِـنْ مَجَالِيهِ،فَادْعُوهُ إِلَى الْقَوْلِ بِالِاتِّحَادِ،فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ فَالْقَوْلُ بِالْحُلُولِ الْعَـامِّ أَوِ الْخَاصِّ،وَلَـا تَقْنَعُوا مِنْهُ بِدُونِ ذَلِكَ،فَإِنَّهُ يَصِيرُ بِهِ مِنْ إِخْوَانِ النَّصَارَى،فَمُرُوهُ حِينَئِذٍ بِالْعِفَّةِ وَالصِّـيَانَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا،وَاصْطَادُوا عَلَيْهِ وَبِهِ الْجُهَّالَ،فَهَذَا مِنْ أَقْرَبِ خُلَفَـائِي وَأَكْبَـرِ جُنْدِي،بَلْ أَنَا مِنْ جُنْدِهِ وَأَعْوَانِهِ.

ثَغْرُ الْأُذُنِ

ثُمَّ امْنَعُوا ثَغْرَ الْأُذُنِ أَنْ يُدْخِلَ عَلَيْهِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمُ الْأَمْرَ،فَاجْتَهِدُوا أَنْ لَا تُدْخِلُوا مِنْهُ إِلَّا الْبَاطِلَ،فَإِنَّهُ خَفِيفٌ عَلَى النَّفْسِ تَسْتَحْلِيهِ وَتَسْتَحْسِنُهُ،تَخَيَّرُوا لَهُ أَعْذَبَ الْأَلْفَاظِ وَأَسْحَرَهَا لِلْأَلْبَابِ،وَامْزِجُوهُ بِمَا تَهْوَى النَّفْسُ مَزْجًا.

وَأَلْقُوا الْكَلِمَةَ فَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنْهُ إِصْغَاءً إِلَيْهَا فَزُجُّوهُ بِأَخَوَاتِهَا،وَكُلَّمَا صَادَفْتُمْ مِنْهُ اسْتِحْسَـانَ شَيْءٍ فَالْهَجُوا لَهُ بِذِكْرِهِ،وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ هَذَا الثَّغْرِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ اللَّـهِ أَوْ كَلَـامِ رَسُولِهِ – ﷺ – أَوْ كَلَامِ النُّصَحَاءِ،فَإِنْ غُلِبْتُمْ عَلَى ذَلِكَ وَدَخَلَ مِنْ ذَلِكَ شَـيْءٌ،فَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَالْعِظَةِ بِهِ،إِمَّا بِإِدْخَالِ ضِدِّهِ عَلَيْهِ،وَإِمَّا بِتَهْوِيلِ ذَلِـكَ

---

[193] – زيادة مني لاستقامة الكلام

وَتَعْظِيمه وَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ حيلَ بَيْنَ النُّفُوسِ وَبَيْنَهُ فَلَا سَبِيلَ لَهَا إِلَيْه،وَهُوَ حِمْلٌ يَثْقُلُ عَلَيْهَا لَا تَسْتَقِلُّ به،وَنَحْوِ ذَلِكَ،وَإِمَّا بِإِرْخَاصِه عَلَى النُّفُوسِ،وَأَنَّ الاشْتِغَالَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِمَا هُوَ أَعْلَى عِنْدَ النَّاسِ،وَأَعَزُّ عَلَيْهِمْ،وَأَغْرَبُ عِنْدَهُمْ،وَزُبُونُهُ الْقَابِلُونَ لَهُ أَكْثَرُ،وَأَمَّا الْحَقُّ فَهُوَ مَهْجُورٌ،وَقَائِلُهُ مُعَرِّضٌ نَفْسَهُ لِلْعَدَاوَةِ،وَالرَّابِحُ بَيْنَ النَّاسِ أَوْلَى بِالْإِيثَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ،فَتُدْخِلُونَ الْبَاطِلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ قَالَبٍ يَقْبَلُهُ وَيَخِفُّ عَلَيْهِ،وَتُخْرِجُونَ لَهُ الْحَقَّ فِي كُلِّ قَالَبٍ يَكْرَهُهُ وَيَثْقُلُ عَلَيْهِ.

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانْظُرْ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ،كَيْفَ يُخْرِجُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي قَالَبِ كَثْرَةِ الْفُضُولِ،وَتَتَبُّعِ عَثَرَاتِ النَّاسِ،وَالتَّعَرُّضِ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ،وَإِلْقَاءِ الْفِتَنِ بَيْنَ النَّاسِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ،وَيُخْرِجُونَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ وَوَصْفَ الرَّبِّ تَعَالَى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ - ﷺ - فِي قَالَبِ التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّكْيِيفِ،وَيُسَمُّونَ عُلُوَّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ وَمُبَايَنَتَهُ لِمَخْلُوقَاتِه،تَحَيُّزًا،وَيُسَمُّونَ نُزُولَهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا،وَقَوْلَهُ:مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ،تَحَرُّكًا وَانْتِقَالًا،وَيُسَمُّونَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْيَدِ وَالْوَجْهِ أَعْضَاءَ وَجَوَارِحَ،وَيُسَمُّونَ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ أَفْعَالِه حَوَادِثَ،وَمَا يَقُومُ مِنْ صِفَاتِه أَعْرَاضًا،ثُمَّ يَتَوَصَّلُونَ إِلَى نَفْيِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ،وَيُوهِمُونَ الْأَغْمَارَ وَضُعَفَاءَ الْبَصَائِرِ،أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِه - ﷺ - تَسْتَلْزِمُ هَذِهِ الْأُمُورَ،وَيُخْرِجُونَ هَذَا التَّعْطِيلَ فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ،وَأَكْثَرُ النَّاسِ ضُعَفَاءُ الْعُقُولِ يَقْبَلُونَ الشَّيْءَ بِلَفْظٍ وَيَرُدُّونَهُ بِعَيْنِهِ بِلَفْظٍ آخَرَ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [سُورَةُ الْأَنْعَامِ:١١٢] فَسَمَّاهُ زُخْرُفًا،وَهُوَ بَاطِلٌ،لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُزَخْرِفُهُ وَيُزَيِّنُهُ مَا اسْتَطَاعَ،وَيُلْقِيهِ إِلَى سَمْعِ الْمَغْرُورِ فَيَغْتَرُّ بِهِ.

وَالْمَقْصُودُ:أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ لَزِمَ ثَغْرَ الْأُذُنِ،أَنْ يُدْخِلَ فِيهَا مَا يَضُرُّ الْعَبْدَ وَلَا يَنْفَعُهُ،وَيَمْنَعَ أَنْ يَدْخُلَ إِلَيْهَا مَا يَنْفَعُهُ،وَإِنْ دَخَلَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ أَفْسَدَهُ عَلَيْهِ.

ثَغْرُ اللِّسَانِ

ثُمَّ يَقُولُ:قُومُوا عَلَى ثَغْرِ اللِّسَانِ،فَإِنَّهُ الثَّغْرُ الْأَعْظَمُ،وَهُوَ قُبَالَةُ الْمَلِكِ،فَأَجْرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ،وَامْنَعُوهُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَنْفَعُهُ:مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِغْفَارِهِ،وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ،وَنَصِيحَةِ عِبَادِهِ،وَالتَّكَلُّمِ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ،وَيَكُونُ لَكُمْ فِي هَذَا الثَّغْرِ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ،لَا تُبَالُونَ بِأَيِّهِمَا ظَفِرْتُمْ:

أَحَدُهُمَا:التَّكَلُّمُ بِالْبَاطِلِ،فَإِنَّمَا الْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ أَخٌ مِنْ إِخْوَانِكُمْ،وَمِنْ أَكْبَرِ جُنْدِكُمْ وَأَعْوَانِكُمْ.

الثَّانِي:السُّكُوتُ عَنِ الْحَقِّ،فَإِنَّ السَّاكِتَ عَنِ الْحَقِّ أَخٌ لَكُمْ أَخْرَسُ،كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ أَخٌ نَاطِقٌ،وَرُبَّمَا كَانَ الْأَخُ الثَّانِي أَنْفَعَ أَخَوَيْكُمْ لَكُمْ،أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ النَّاصِحِ:الْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ،وَالسَّاكِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ؟

فَالرِّبَاطَ الرِّبَاطَ عَلَى هَذَا الثَّغْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقٍّ أَوْ يُمْسِكَ عَنْ بَاطِلٍ،وَزَيِّنُوا لَهُ التَّكَلُّمَ بِالْبَاطِلِ بِكُلِّ طَرِيقٍ،وَخَوِّفُوهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْحَقِّ بِكُلِّ طَرِيقٍ.

وَاعْلَمُوا يَا بَنِيَّ أَنَّ ثَغْرَ اللِّسَانِ هُوَ الَّذِي أُهْلِكُ مِنْهُ بَنِي آدَمَ،وَأَكُبُّهُمْ مِنْهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ،فَكَمْ لِي مِنْ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ وَجَرِيحٍ أَخَذْتُهُ مِنْ هَذَا الثَّغْرِ؟

وَأُوصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظُوهَا:لِيَنْطِقْ أَحَدُكُمْ عَلَى لِسَانِ أَخِيهِ مِنَ الْإِنْسِ بِالْكَلِمَةِ،وَيَكُونُ الْآخَرُ عَلَى لِسَانِ السَّامِعِ فَيَنْطِقُ بِاسْتِحْسَانِهَا وَتَعْظِيمِهَا وَالتَّعَجُّبِ مِنْهَا وَيَطْلُبُ مِنْ أَخِيهِ إِعَادَتَهَا،وَكُونُوا أَعْوَانًا عَلَى الْإِنْسِ بِكُلِّ طَرِيقٍ،وَادْخُلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ،وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ،أَمَا سَمِعْتُمْ قَسَمِي الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لِرَبِّهِمْ حَيْثُ قُلْتُ:{فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ - ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [سُورَةُ الْأَعْرَاف ١٦ - ١٧] .

أَوَمَا تَرَوْنِي قَدْ قَعَدْتُ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ كُلِّهَا،فَلَا يَفُوتُنِي مِنْ طَرِيقٍ إِلَّا قَعَدْتُ لَهُ بِطَرِيقٍ غَيْرِهِ،حَتَّى أُصِيبَ مِنْهُ حَاجَتِي أَوْ بَعْضَهَا؟ وَقَدْ حَذَّرَهُمْ ذَلِكَ رَسُولُهُمْ - ﷺ -فَعَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِه قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِه فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ:تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ،فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ،ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ،فَقَالَ:تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ،وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ

فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ،ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ:تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ " فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،قَالَ:وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ "[١٩٤]

فَكَهَذَا فَاقْعُدُوا لَهُمْ بِكُلِّ طُرُقِ الْخَيْرِ،فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَتَصَدَّقَ فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى طَرِيقِ الصَّدَقَةِ،وَقُولُوا لَهُ فِي نَفْسِهِ:أَتُخْرِجُ الْمَالَ فَتَبْقَى مِثْلَ هَذَا السَّائِلِ وَتَصِيرَ بِمَنْزِلَتِهِ أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ؟ أَوَمَا سَمِعْتُمْ مَا أَلْقَيْتُ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ سَأَلَهُ آخَرُ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ،قَالَ:هِيَ أَمْوَالُنَا إِذَا أَعْطَيْنَاكُمُوهَا صِرْنَا مِثْلَكُمْ.

وَاقْعُدُوا لَهُ بِطَرِيقِ الْحَجِّ،فَقُولُوا:طَرِيقُهُ مَخُوفَةٌ مُشِقَّةٌ،يَتَعَرَّضُ سَالِكُهَا لِتَلَفِ النَّفْسِ وَالْمَالِ،وَهَكَذَا فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى سَائِرِ طُرُقِ الْخَيْرِ بِالتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَذِكْرِ صُعُوبَتِهَا وَآفَاتِهَا،ثُمَّ اقْعُدُوا لَهُمْ عَلَى طُرُقِ الْمَعَاصِي فَحَسِّنُوهَا فِي أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ،وَزَيِّنُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ،وَاجْعَلُوا أَكْثَرَ أَعْوَانِكُمْ عَلَى ذَلِكَ النِّسَاءَ،فَمِنْ أَبْوَابِهِنَّ فَادْخُلُوا عَلَيْهِمْ،فَنِعْمَ الْعَوْنُ هُنَّ لَكُمْ.

ثُمَّ الْزَمُوا ثَغْرَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ،فَامْنَعُوهَا أَنْ تَبْطِشَ بِمَا يَضُرُّكُمْ وَتَمْشِي فِيهِ.

النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ

وَاعْلَمُوا أَنَّ أَكْبَرَ أَعْوَانِكُمْ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ الثُّغُورِ مُصَالَحَةُ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ،فَأَعْيُوهَا وَاسْتَعِينُوا بِهَا،وَأَمِدُّوهَا وَاسْتَمِدُّوا مِنْهَا،وَكُونُوا مَعَهَا عَلَى حَرْبِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ،فَاجْتَهِدُوا فِي كَسْرِهَا وَإِبْطَالِ قُوَاهَا،وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِقَطْعِ مَوَادِّهَا عَنْهَا،فَإِذَا انْقَطَعَتْ مَوَادُّهَا وَقَوِيَتْ مَوَادُّ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ،وَانْطَاعَتْ لَكُمْ أَعْوَانُهَا،فَاسْتَنْزِلُوا الْقَلْبَ مِنْ حِصْنِهِ،وَاعْزِلُوهُ عَنْ مَمْلَكَتِهِ،وَوَلُّوا مَكَانَهُ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ،فَإِنَّهَا لَا تَأْمُرُ إِلَّا بِمَا تَهْوَوْنَهُ وَتُحِبُّونَهُ،وَلَا تَجِيئُكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَهُ أَلْبَتَّةَ،مَعَ أَنَّهَا لَا تُخَالِفُكُمْ فِي شَيْءٍ تُشِيرُونَ بِهِ عَلَيْهَا،بَلْ إِذَا أَشَرْتُمْ عَلَيْهَا بِشَيْءٍ بَادَرَتْ إِلَى فِعْلِهِ،فَإِنْ أَحْسَسْتُمْ مِنَ الْقَلْبِ مُنَازَعَةً إِلَى

---

[١٩٤] – السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٨٣)(٤٣٢٧) وصحيح ابن حبان – مخرجا (١٠/ ٤٥٣)(٤٥٩٣) صحيح

مَمْلَكَته،وَأَرَدْتُمُ الْأَمْنَ مِنْ ذَلِكَ،فَاعْقِدُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّفْسِ عَقْدَ النِّكَاحِ،فَزَيِّنُوهَا وَجَمِّلُوهَا،وَأَرُوهَا إِيَّاهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةِ عَرُوسٍ تُوجَدُ،وَقُولُوا لَهُ ذُقْ طَعْمَ هَذَا الْوِصَالِ وَالتَّمَتُّعِ بِهَذِهِ الْعَرُوسِ كَمَا ذُقْتَ طَعْمَ الْحَرْبِ،وَبَاشَرْتَ مَرَارَةَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ،ثُمَّ وَازِنْ بَيْنَ لَذَّةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ،وَمَرَارَةِ تِلْكَ الْمُحَارَبَةِ،فَدَعِ الْحَرْبَ تَضَعُ أَوْزَارَهَا،فَلَيْسَتْ بِيَوْمٍ وَتَنْقَضِي،وَإِنَّمَا هُوَ حَرْبٌ مُتَّصِلٌ بِالْمَوْتِ،وَقُوَاكَ تَضْعُفُ عَنْ حَرْبٍ دَائِمٍ.

وَاسْتَعِينُوا يَا بَنِيَّ بِجُنْدَيْنِ عَظِيمَيْنِ لَنْ تُغْلَبُوا مَعَهُمَا:

أَحَدُهُمَا:جُنْدُ الْغَفْلَةِ،فَأَغْفِلُوا قُلُوبَ بَنِي آدَمَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بِكُلِّ طَرِيقٍ،فَلَيْسَ لَكُمْ شَيْءٌ أَبْلَغَ فِي تَحْصِيلِ غَرَضِكُمْ مِنْ ذَلِكَ،فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا غَفَلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى تَمَكَّنْتُمْ مِنْهُ وَمِنْ إِغْوَائِهِ.

الثَّانِي:جُنْدُ الشَّهَوَاتِ،فَزَيِّنُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ،وَحَسِّنُوهَا فِي أَعْيُنِهِمْ،وَصُولُوا عَلَيْهِمْ بِهَذَيْنِ الْعَسْكَرَيْنِ،فَلَيْسَ لَكُمْ فِي بَنِي آدَمَ أَبْلَغُ مِنْهُمَا،وَاسْتَعِينُوا عَلَى الْغَفْلَةِ بِالشَّهَوَاتِ،وَعَلَى الشَّهَوَاتِ بِالْغَفْلَةِ،وَاقْرِنُوا بَيْنَ الْغَافِلِينَ،ثُمَّ اسْتَعِينُوا بِهِمَا عَلَى الذَّاكِرِ،وَلَا يَغْلِبُ وَاحِدٌ خَمْسَةً،فَإِنَّ مَعَ الْغَافِلَيْنِ شَيْطَانَيْنِ صَارُوا أَرْبَعَةً،وَشَيْطَانُ الذَّاكِرِ مَعَهُمْ،وَإِذَا رَأَيْتُمْ جَمَاعَةً مُجْتَمِعِينَ عَلَى مَا يَضُرُّكُمْ – مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمُذَاكَرَةِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَدِينِهِ،وَلَمْ تَقْدِرُوا عَلَى تَفْرِيقِهِمْ – فَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِبَنِي جِنْسِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ الْبَطَّالِينَ،فَقَرِّبُوهُمْ مِنْهُمْ،وَشَوِّشُوا عَلَيْهِمْ بِهِمْ،وَبِالْجُمْلَةِ فَأَعِدُّوا لِلْأُمُورِ أَقْرَانَهَا،وَادْخُلُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَابِ إِرَادَتِهِ وَشَهْوَتِهِ،فَسَاعِدُوهُ عَلَيْهَا،وَكُونُوا لَهُ أَعْوَانًا عَلَى تَحْصِيلِهَا،وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَصْبِرُوا لَكُمْ وَيُصَابِرُوكُمْ وَيُرَابِطُوا عَلَيْكُمُ الثُّغُورَ،فَاصْبِرُوا أَنْتُمْ وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا عَلَيْهِمْ بِالثُّغُورِ،وَانْتَهِزُوا فُرَصَكُمْ فِيهِمْ عِنْدَ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ،فَلَا تَصْطَادُوا بَنِي آدَمَ فِي أَعْظَمَ مِنْ هَذَيْنِ الْمَوْطِنَيْنِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ الشَّهْوَةِ عَلَيْهِ أَغْلَبَ وَسُلْطَانُ غَضَبِهِ ضَعِيفٌ مَقْهُورٌ،فَخُذُوا عَلَيْهِ طَرِيقَ الشَّهْوَةِ،وَدَعُوا طَرِيقَ الْغَضَبِ،وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ الْغَضَبِ عَلَيْهِ أَغْلَبَ،فَلَا تُخْلُوا طَرِيقَ الشَّهْوَةِ قَلْبَهُ،وَلَا تُعَطِّلُوا ثَغْرَهَا،فَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ،فَإِنَّهُ الْحَرِيُّ أَنْ لَا يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهْوَةِ،فَزَوِّجُوا بَيْنَ غَضَبِهِ

وَشَهْوَتِه،وَامْزِجُوا أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ،وَادْعُوهُ إِلَى الشَّهْوَةِ مِنْ بَابِ الْغَضَبِ،وَإِلَى الْغَضَبِ مِنْ طَرِيقِ الشَّهْوَةِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ فِي بَنِي آدَمَ سِلَاحٌ أَبْلَغُ مِنْ هَذَيْنِ السِّلَاحَيْنِ،وَإِنَّمَا أَخْرَجْتُ أَبَوَيْهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ بِالشَّهْوَةِ،وَإِنَّمَا أَلْقَيْتُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ أَوْلَادِهِمْ بِالْغَضَبِ،فَبِهِ قَطَّعْتُ أَرْحَامَهُمْ،وَسَفَكْتُ دِمَاءَهُمْ،وَبِهِ قَتَلَ أَحَدُ ابْنَيْ آدَمَ أَخَاهُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ،وَالشَّهْوَةَ تَثُورُ مِنْ قَلْبِهِ،وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ وَالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَالتَّكْبِيرِ،فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُمَكِّنُوا ابْنَ آدَمَ عِنْدَ غَضَبِهِ وَشَهْوَتِهِ مِنْ قُرْبَانِ الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ،فَإِنَّ ذَلِكَ يُطْفِئُ عَنْهُمْ نَارَ الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ،وَقَدْ أَمَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ بِذَلِكَ فَقَالَ:" إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ،أَلَمْ تَرَوْا إِلَى انْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ،وَحُمْرَةِ عَيْنَيْهِ؟ فَمَنْ أَحَسَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ قَائِمًا فَلْيَقْعُدْ،وَإِنْ كَانَ قَاعِدًا فَلْيَضْطَجِعْ "[١٩٥].

وَقَالَ لَهُمْ:«إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ،وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ،وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ،فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ»[١٩٦]،وَقَدْ أَوْصَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَعِينُوا عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ،فَحُولُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ،وَأَنْسُوهُمْ إِيَّاهُ،وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِالشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ،وَأَبْلَغُ أَسْلِحَتِكُمْ فِيهِمْ وَأَنْكَاهَا:الْغَفْلَةُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى.وَأَعْظَمُ أَسْلِحَتِهِمْ فِيكُمْ وَأَمْنَعُ حُصُونِهِمْ ذِكْرُ اللَّهِ وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى،فَإِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ مُخَالِفًا لِهَوَاهُ فَاهْرَبُوا مِنْ ظِلِّهِ وَلَا تَدْنُوا مِنْهُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ سِلَاحٌ وَمَدَدٌ يَمُدُّ بِهَا الْعَبْدُ أَعْدَاءَهُ وَيُعِينُهُمْ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ،فَيُقَاتِلُونَ بِسِلَاحِهِ،وَيَكُونُ مَعَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ،وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ.

مَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ...مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ[١٩٧]

---

[١٩٥] – شعب الإيمان (١٠/ ٥٢٩)(٧٩٣٧) صحيح مرسل

[١٩٦] – سنن أبي داود (٤/ ٢٤٩)(٤٧٨٤) حسن لغيره

[١٩٧] – الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٥٦٢) وسوء الخلق (ص: ٦٥) ومفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار (١/ ٣٧٩) وموارد الظمآن لدروس الزمان (١/ ٢٠٣)

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ الْعَبْدَ يَسْعَى بِجُهْدِهِ فِي هَوَانِ نَفْسِهِ،وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكْرِمٌ وَيَجْتَهِدُ فِي حِرْمَانِهَا أَعْلَى حُظُوظِهَا وَأَشْرَفَهَا وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَسْعَى فِي حَظِّهَا،وَيَبْذُلُ جُهْدَهُ فِي تَحْقِيرِهَا وَتَصْغِيرِهَا وَتَدْنِيسِهَا،وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُعْلِيهَا وَيَرْفَعُهَا وَيُكْبِرُهَا.

وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ:أَلَا رُبَّ مُهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكْرِمٌ،وَمُذِلٌّ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُعِزٌّ،وَمُصَغِّرٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكَبِّرٌ،وَمُضِيعٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُرَاعٍ لِحِفْظِهَا،وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يَكُونَ مَعَ عَدُوِّهِ عَلَى نَفْسِهِ،يَبْلُغُ مِنْهَا بِفِعْلِهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ عَدُوُّهُ،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الْمَعْصِيَةُ تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ،وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ أَهْمَلَهَا وَأَفْسَدَهَا وَأَهْلَكَهَا،فَإِنْ قِيلَ:كَيْفَ يَنْسَى الْعَبْدُ نَفْسَهُ؟ وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ فَأَيُّ شَيْءٍ يَذْكُرُ؟ وَمَا مَعْنَى نِسْيَانِهِ نَفْسَهُ؟ قِيلَ:نَعَمْ يَنْسَى نَفْسَهُ أَعْظَمَ نِسْيَانٍ،قَالَ تَعَالَى:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سُورَةُ الْحَشْرِ:١٩] .

فَلَمَّا نَسُوا رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُمْ وَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} [سُورَةُ التَّوْبَةِ:٦٧] .

فَعَاقَبَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَسِيَهُ عُقُوبَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا:أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُ.وَالثَّانِيَةُ:أَنَّهُ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ.

وَنِسْيَانُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ:إِهْمَالُهُ،وَتَرْكُهُ،وَتَخَلِّيهِ عَنْهُ،وَإِضَاعَتُهُ،فَالْهَلَاكُ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنَ الْيَدِ لِلْفَمِ،وَأَمَّا إِنْسَاؤُهُ نَفْسَهُ،فَهُوَ:إِنْسَاؤُهُ لِحُظُوظِهَا الْعَالِيَةِ،وَأَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا،وَإِصْلَاحِهَا،وَمَا تَكْمُلُ بِهِ بِنَسْيِهِ ذَلِكَ كُلِّهِ جَمِيعِهِ فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ،وَلَا يَجْعَلُهُ عَلَى ذِكْرِهِ،وَلَا يَصْرِفُ إِلَيْهِ هِمَّتَهُ فَيَرْغَبُ فِيهِ،فَإِنَّهُ لَا يَمُرُّ بِبَالِهِ حَتَّى يَقْصِدَهُ وَيُؤْثِرَهُ.

وَأَيْضًا فَيُنْسِيهِ عُيُوبَ نَفْسِهِ وَنَقْصَهَا وَآفَاتِهَا،فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ إِزَالَتُهَا.

وَأَيْضًا فَيُنْسِيهِ أَمْرَاضَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَآلَامَهَا،فَلَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ مُدَاوَاتُهَا،وَلَا السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ عِلَلِهَا وَأَمْرَاضِهَا الَّتِي تَئُولُ بِهَا إِلَى الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ،فَهُوَ مَرِيضٌ مُثْخَنٌ بِالْمَرَضِ،وَمَرَضُهُ

مُتَرَامٍ بِهِ إِلَى التَّلَفِ،وَلَا يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ،وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ مُدَاوَاتُهُ،وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ.

فَأَيُّ عُقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ وَضَيَّعَهَا،وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَاءَهَا وَدَوَاءَهَا،وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَصَلَاحِهَا وَحَيَاتِهَا الْأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ؟

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْمَوْضِعَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَكْثَرَ هَذَا الْخَلْقِ قَدْ نَسُوا حَقِيقَةَ أَنْفُسِهِمْ وَضَيَّعُوهَا وَأَضَاعُوا حَظَّهَا مِنَ اللَّهِ،وَبَاعُوهَا رَخِيصَةً بِثَمَنٍ بَخْسٍ بَيْعَ الْغَبْنِ،وَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُمْ هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ،وَيَظْهَرُ هَذَا كُلَّ الظُّهُورِ يَوْمَ التَّغَابُنِ،يَوْمَ يَظْهَرُ لِلْعَبْدِ أَنَّهُ غُبِنَ فِي الْعَقْدِ الَّذِي عَقَدَهُ لِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ،وَالتِّجَارَةِ الَّتِي اتَّجَرَ فِيهَا لِمَعَادِهِ،فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَتَّجِرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِآخِرَتِهِ.

فَالْخَاسِرُونَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الرِّبْحِ وَالْكَسْبِ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَحَظَّهُمْ فِيهَا وَلَذَّاتِهِمْ،بِالْآخِرَةِ وَحَظِّهِمْ فِيهَا،فَأَذْهَبُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا،وَاسْتَمْتَعُوا بِهَا،وَرَضُوا بِهَا،وَاطْمَأَنُّوا إِلَيْهَا،وَكَانَ سَعْيُهُمْ لِتَحْصِيلِهَا،فَبَاعُوا وَاشْتَرَوْا وَاتَّجَرُوا وَبَاعُوا آجِلًا بِعَاجِلٍ،وَنَسِيئَةً بِنَقْدٍ،وَغَائِبًا بِنَاجِزٍ،وَقَالُوا:هَذَا هُوَ الْحَزْمُ،وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فَكَيْفَ أَبِيعُ حَاضِرًا نَقْدًا مُشَاهَدًا فِي هَذِهِ الدَّارِ بِغَائِبٍ نَسِيئَةً فِي دَارٍ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ؟ وَيَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ وَقُوَّةُ دَاعِي الشَّهْوَةِ،وَمَحَبَّةُ الْعَاجِلَةِ وَالتَّشَبُّهُ بِبَنِي الْجِنْسِ،فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِي أَهْلِهَا:{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [سُورَةُ الْبَقَرَةِ:٨٦]،وَقَالَ فِيهِمْ:{فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [سُورَةُ الْبَقَرَةِ:١٦]،فَإِذَا كَانَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ظَهَرَ لَهُمُ الْغَبْنُ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ،فَتَتَقَطَّعُ عَلَيْهِمُ النُّفُوسُ حَسَرَاتٍ.

وَأَمَّا الرَّابِحُونَ فَإِنَّهُمْ بَاعُوا فَانِيًا بِبَاقٍ،وَخَسِيسًا بِنَفِيسٍ،وَحَقِيرًا بِعَظِيمٍ،وَقَالُوا:مَا مِقْدَارُ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا،حَتَّى نَبِيعَ حَظَّنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا؟ فَكَيْفَ يَنَالُ الْعَبْدُ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الْقَصِيرِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَغَفْوَةِ حُلْمٍ،لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَى

دَّارِ الْقَرَارِ أَلْبَتَّةَ:قَالَ تَعَالَى:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} [سُورَةُ يُونُسَ:٤٥] .

وَقَالَ تَعَالَى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا - فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا - إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا - إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا - كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [سُورَةُ النَّازِعَاتِ:٤٢ - ٤٦] .

وَقَالَ تَعَالَى:{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ} [سُورَةُ الْأَحْقَافِ:٣٥] .

وَقَالَ تَعَالَى:{كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ - قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ - قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ:١١٢ - ١١٤] .

وَقَالَ تَعَالَى:{يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا - يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا - نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [سُورَةُ طه:١٠٢ - ١٠٤] .

فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الدُّنْيَا عِنْدَ مُوَافَاةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ،فَلَمَّا عَلِمُوا قِلَّةَ لُبْثِهِمْ فِيهَا،وَأَنَّ لَهُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ الدَّارِ،هِيَ دَارُ الْحَيَوَانِ وَدَارُ الْبَقَاءِ - رَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ بَيْعَ دَارِ الْبَقَاءِ بِدَارِ الْفَنَاءِ،فَاتَّجَرُوا تِجَارَةَ الْأَكْيَاسِ،وَلَمْ يَغْتَرُّوا بِتِجَارَةِ السُّفَهَاءِ مِنَ النَّاسِ،فَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ التَّغَابُنِ رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ وَمِقْدَارُ مَا اشْتَرَوْهُ،وَكُلُّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَائِعٌ مُشْتَرٍ مُتَّجِرٌ،وَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا.

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سُورَةُ التَّوْبَةِ:١١١] .

فَهَذَا أَوَّلُ نَقْدٍ مِنْ ثَمَنِ هَذِهِ التِّجَارَةِ،فَتَاجِرُوا أَيُّهَا الْمُفْلِسُونَ،وَيَا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا الثَّمَنِ،هُنَا ثَمَنٌ آخَرُ،فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ التِّجَارَةِ فَأَعْطِ هَذَا الثَّمَنَ:

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سُورَةُ التَّوْبَةِ:١١٢] .

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ - تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سُورَةُ الصَّفِّ:١٠ - ١١] .

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ تُنْسِي الْعَبْدَ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ،وَتَشْغَلُهُ بِالتِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ،وَكَفَى بِذَلِكَ عُقُوبَةً،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ الْحَاضِرَةَ،وَتَقْطَعُ النِّعَمَ الْوَاصِلَةَ،فَتُزِيلُ الْحَاصِلَ،وَتَمْنَعُ الْوَاصِلَ،فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ،وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ،فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ،وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا وَآفَةً،سَبَبًا يَجْلِبُهُ،وَآفَةً تُبْطِلُهُ،فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعَمِهِ الْجَالِبَةَ لَهَا طَاعَتَهُ،وَآفَاتِهَا الْمَانِعَةَ مِنْهَا مَعْصِيَتَهُ،فَإِذَا أَرَادَ حِفْظَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَلْهَمَهُ رِعَايَتَهَا بِطَاعَتِهِ فِيهَا،وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ خَذَلَهُ حَتَّى عَصَاهُ بِهَا.

وَمِنَ الْعَجَبِ عِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهَدَةً فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ،وَسَمَاعًا لِمَا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَخْبَارِ مَنْ أُزِيلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَنْهُمْ بِمَعَاصِيهِ،وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ،كَأَنَّهُ مُسْتَثْنًى مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ،أَوْ مَخْصُوصٌ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ،وَكَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَارٍ عَلَى النَّاسِ لَا عَلَيْهِ،وَوَاصِلٌ إِلَى الْخَلْقِ لَا إِلَيْهِ،فَأَيُّ جَهْلٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ ظُلْمٍ لِلنَّفْسِ فَوْقَ هَذَا؟ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.

الْمَعْصِيَةُ تُبَاعِدُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَلِكِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تُبَاعِدُ عَنِ الْعَبْدِ وَلِيَّهُ وَأَنْفَعَ الْخَلْقِ لَهُ وَأَنْصَحَهُمْ لَهُ،وَمَنْ سَعَادَتُهُ فِي قُرْبِهِ مِنْهُ،وَهُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ،وَتُدْنِي مِنْهُ عَدُوَّهُ وَأَغَشَّ الْخَلْقِ لَهُ،وَأَعْظَمَهُمْ ضَرَرًا

لَهُ،وَهُوَ الشَّيْطَانُ،فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَصَى اللَّهَ تَبَاعَدَ مِنْهُ الْمَلَكُ بِقَدْرِ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ،حَتَّى إِنَّهُ يَتَبَاعَدُ مِنْهُ بِالْكَذْبَةِ الْوَاحِدَةِ مَسَافَةً بَعِيدَةً.

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ:عَنْ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ عَنْهُ الْمَلَكُ مِيلًا مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَ بِهِ؟»[١٩٨]

فَإِذَا كَانَ هَذَا تَبَاعُدَ الْمَلَكِ مِنْهُ مِنْ كِذْبَةٍ وَاحِدَةٍ،فَمَاذَا يَكُونُ مِقْدَارُ بُعْدِهِ مِنْهُ مِمَّا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ،وَأَفْحَشُ مِنْهُ؟

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:إِذَا رُكِبَ الذَّكَرُ عَجَّتِ الْأَرْضُ إِلَى اللَّهِ وَهَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى رَبِّهَا،وَشَكَتْ إِلَيْهِ عَظِيمَ مَا رَأَتْ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ ابْتَدَرَهُ الْمَلَكُ وَالشَّيْطَانُ،فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَحَمِدَهُ وَهَلَّلَهُ،طُرِدَ الشَّيْطَانُ وَتَوَلَّاهُ الْمَلَكُ،وَإِنِ افْتَتَحَ بِغَيْرِ ذَلِكَ ذَهَبَ الْمَلَكُ عَنْهُ وَتَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ.

وَلَا يَزَالُ الْمَلَكُ يَقْرُبُ مِنَ الْعَبْدِ حَتَّى يَصِيرَ الْحُكْمُ وَالطَّاعَةُ وَالْغَلَبَةُ لَهُ،فَتَتَوَلَّاهُ الْمَلَائِكَةُ فِي حَيَاتِهِ وَعِنْدَ مَوْتِهِ وَعِنْدَ بَعْثِهِ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ - نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [سُورَةُ فُصِّلَتْ:٣٠ - ٣١] .

وَإِذَا تَوَلَّاهُ الْمَلَكُ تَوَلَّاهُ أَنْصَحُ الْخَلْقِ وَأَنْفَعُهُمْ وَأَبَرُّهُمْ،فَثَبَّتَهُ وَعَلَّمَهُ،وَقَوَّى جَنَانَهُ،وَأَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى:{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [سُورَةُ الْأَنْفَالِ:١٢] .

---

[١٩٨] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٤٨)(١٩٧٢) ضعيف

فَإِذَا غَابَ الْمَلَكُ عِنْدَ الْكَذِبِ حَضَرَ عِنْدَ الصِّدْقِ،فَشَهِدَ،وَالْمَلَكُ حَبِيبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ كَرِيمٌ عَلَيْهِ،قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ} [الانفطار: ١١] أَيْ كِرَامًا عَلَى اللَّهِ،كَاتِبِينَ لِأَعْمَالِكُمْ،وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٦] ،وَقَالَ {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦] ،فَهَذِهِ صِفَاتُ مَنْ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ،فَإِذَا فَالْمَلَكُ حَبِيبُ اللَّهِ،وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَهُوَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَبِيبٌ،وَوَرَدَ الْخَبَرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْعُطَاسَ،وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ» بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي (ص: ٥٢)

فَيَقُولُ الْمَلَكُ عِنْدَ الْمَوْتِ:لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ وَأَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ،وَيُثَبِّتُهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،وَعِنْدَ الْمَوْتِ،وَفِي الْقَبْرِ عِنْدَ الْمَسْأَلَةِ.

فَلَيْسَ أَحَدٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ مِنْ صُحْبَةِ الْمَلَكِ لَهُ،وَهُوَ وَلِيُّهُ فِي يَقَظَتِهِ وَمَنَامِهِ،وَحَيَاتِهِ وَعِنْدَ مَوْتِهِ وَفِي قَبْرِهِ،وَمُؤْنِسُهُ فِي وَحْشَتِهِ،وَصَاحِبُهُ فِي خَلْوَتِهِ،وَمُحَدِّثُهُ فِي سِرِّهِ،وَيُحَارِبُ عَنْهُ عَدُوَّهُ،وَيُدَافِعُ عَنْهُ وَيُعِينُهُ عَلَيْهِ،وَيَعِدُهُ بِالْخَيْرِ وَيُبَشِّرُهُ بِهِ،وَيَحُثُّهُ عَلَى التَّصْدِيقِ بِالْحَقِّ،كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ الَّذِي يُرْوَى مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا:عَنِ الْمُسَيَّبِ بْنِ رَافِعٍ،حَدَّثَنِي أَبُو إِيَاسٍ الْبَجَلِيُّ قَالَ:سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ،يَقُولُ:مَنْ تَطَاوَلَ تَنْظِيمًا خَفَضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ تَخَشُّعًا رَفَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،وَإِنَّ لِلْمَلَكِ لُمَّةً وَلِلشَّيْطَانِ لُمَّةً،فَلُمَّةُ الْمَلَكِ إِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ،فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاحْمَدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،وَلُمَّةُ الشَّيْطَانِ إِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ،فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[١٩٩] .

وَإِذَا اشْتَدَّ قُرْبُ الْمَلَكِ مِنَ الْعَبْدِ تَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ،وَأَلْقَى عَلَى لِسَانِهِ الْقَوْلَ السَّدِيدَ،وَإِذَا بَعُدَ مِنْهُ وَقَرُبَ الشَّيْطَانُ،تَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ،وَأَلْقَى عَلَيْهِ قَوْلَ الزُّورِ وَالْفُحْشِ،حَتَّى يُرَى الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ الْمَلَكُ وَالرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ الشَّيْطَانُ وَفِي الْحَدِيثِ:عَنْ وَهْبٍ السُّوَائِيِّ قَالَ:خَطَبَنَا عَلِيٌّ فَقَالَ:" مَنْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا؟ فَقُلْنَا:أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَقَالَ:لَا،خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ،ثُمَّ عُمَرُ،وَمَا كُنَّا نُبْعِدُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ.- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - [٢٠٠]

وعَنْ عَلِيٍّ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:«كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوَّاهًا حَلِيمًا،وَكَانَ عُمَرُ مُخْلِصًا نَاصِحًا لِلَّهِ فَنَصَحَهُ،وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَحْنُ مُتَوَافِرُونَ،وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَنَرَى أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ،وَإِنْ كُنَّا لَنَرَى شَيْطَانَ عُمَرَ يَهَابُهُ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالْخَطِيئَةِ يَعْمَلُهَا»[٢٠١]

---

[١٩٩] – الزهد لأبي داود (ص: ١٦٤)(١٦٤) والزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٢٩)(٨٥٤) صحيح موقوف

[٢٠٠] – فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٨٤)(٥٠) صحيح

[٢٠١] – فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٤٠٦)(٦٢٧) وأمالي ابن بشران – الجزء الأول (ص: ٩٢)(١٧٦) صحيح – زيادة مني

وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ الصَّالِحَةَ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فَيَقُولُ:مَا أَلْقَاهُ عَلَى لِسَانِكَ إِلَّا الْمَلَكُ،وَيَسْمَعُ ضِدَّهَا فَيَقُولُ:مَا أَلْقَاهَا عَلَى لِسَانِكَ إِلَّا الشَّيْطَانُ،فَالْمَلَكُ يُلْقِي بِالْقَلْبِ الْحَقَّ وَيُلْقِيهِ عَلَى اللِّسَانِ،وَالشَّيْطَانُ يُلْقِي الْبَاطِلَ فِي الْقَلْبِ وَيُجْرِيهِ عَلَى اللِّسَانِ.

فَمِنْ عُقُوبَةِ الْمَعَاصِي أَنَّهَا تُبْعِدُ مِنَ الْعَبْدِ وَلِيَّهُ الَّذِي سَعَادَتُهُ فِي قُرْبِهِ وَمُجَاوَرَتِهِ وَمُوَالَاتِهِ،وَتُدْنِي مِنْهُ عَدُوَّهُ الَّذِي شَقَاؤُهُ وَهَلَاكُهُ وَفَسَادُهُ فِي قُرْبِهِ وَمُوَالَاتِهِ،حَتَّى إِنَّ الْمَلَكَ لَيُنَافِحُ عَنِ الْعَبْدِ،وَيَرُدُّ عَنْهُ إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِ السَّفِيهُ وَسَبَّهُ،عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّهُ قَالَ:بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ وَقَعَ رَجُلٌ بِأَبِي بَكْرٍ،فَآذَاهُ،فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ آذَاهُ الثَّانِيَةَ،فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ،ثُمَّ آذَاهُ الثَّالِثَةَ،فَانْتَصَرَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ،فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ انْتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَوَجَدْتَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكَذِّبُهُ بِمَا قَالَ لَكَ،فَلَمَّا انْتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ،فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ إِذْ وَقَعَ الشَّيْطَانُ»[٢٠٢].

و عَنْ صَفْوَانَ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ صَفْوَانَ،وَكَانَتْ تَحْتَهُ الدَّرْدَاءُ،قَالَ:قَدِمْتُ الشَّامَ،فَأَتَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي مَنْزِلِهِ،فَلَمْ أَجِدْهُ وَوَجَدْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ،فَقَالَتْ:أَتُرِيدُ الْحَجَّ الْعَامَ،فَقُلْتُ:نَعَمْ،قَالَتْ:فَادْعُ اللهَ لَنَا بِخَيْرٍ،فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ:" دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ،عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ،قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ:آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ "[٢٠٣].

وَإِذَا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ أَمَّنَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى دُعَائِهِ.فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ،فَأَمِّنُوا،فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ – وَقَالَ ابْنُ شِهَابٍ – وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:آمِينَ "[٢٠٤]

وَإِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ الْمُوَحِّدُ الْمُتَّبِعُ لِسَبِيلِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ – ﷺ – اسْتَغْفَرَ لَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ.

---

[٢٠٢] – سنن أبي داود (٤/ ٢٧٤)(٤٨٩٦) حسن لغيره – (أوَجَدْتَ) أي: أغَضِبْتَ؟ من الموجدة: الغضب.

[٢٠٣] – صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٤)٨٨ – (٢٧٣٣)– أتى به مختصرا

[٢٠٤] – صحيح البخاري (١/ ١٥٦)(٧٨٠) وصحيح مسلم (١/ ٣٠٧)٧٢ – (٤١٠) – زيادة مني

[ش (آمن) قال آمين.(تأمين الملائكة) قولها آمين بعد قول الإمام]

وَإِذَا نَامَ الْعَبْدُ عَلَى وُضُوءٍ بَاتَ فِي شِعَارِ مَلَكٍ.
فَمَلَكُ الْمُؤْمِنِ يَرُدُّ عَنْهُ وَيُحَارِبُ وَيُدَافِعُ عَنْهُ،وَيُعَلِّمُهُ وَيُثَبِّتُهُ وَيُشَجِّعُهُ،فَلَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُسِيءَ جِوَارَهُ وَيُبَالِغَ فِي أَذَاهُ وَطَرْدِهِ عَنْهُ وَإِبْعَادِهِ،فَإِنَّهُ ضَيْفُهُ وَجَارُهُ.
وَإِذَا كَانَ إِكْرَامُ الضَّيْفِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجَارِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ وَمُوجِبَاتِهِ،فَمَا الظَّنُّ بِإِكْرَامِ أَكْرَمِ الْأَضْيَافِ،وَخَيْرِ الْجِيرَانِ وَأَبَرِّهِمْ؟ وَإِذَا آذَى الْعَبْدُ الْمَلَكَ بِأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ دَعَا عَلَيْهِ رَبُّهُ،وَقَالَ:لَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا،كَمَا يَدْعُو لَهُ إِذَا أَكْرَمَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْإِحْسَانِ.
عَنْ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِيَّاكُمْ وَالتَّعَرِّيَ فَإِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الْغَائِطِ وَحِينَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى أَهْلِهِ،فَاسْتَحْيُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ»[٢٠٥].
وَلَا أَلْأَمَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ الْقَدْرِ،وَلَا يُجِلُّهُ وَلَا يُوَقِّرُهُ،وَقَدْ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ:{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ - كِرَامًا كَاتِبِينَ - يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [سُورَةُ الِانْفِطَارِ:١٠ - ١٢] أَيِ اسْتَحْيُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الْحَافِظِينَ الْكِرَامِ وَأَكْرِمُوهُمْ،وَأَجِلُّوهُمْ أَنْ يَرَوْا مِنْكُمْ مَا تَسْتَحْيُونَ أَنْ يَرَاكُمْ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ مِثْلُكُمْ،وَالْمَلَائِكَةُ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ،وَإِذَا كَانَ ابْنُ آدَمَ يَتَأَذَّى مِمَّنْ يَفْجُرُ وَيَعْصِي بَيْنَ يَدَيْهِ،وَإِنْ كَانَ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ،فَمَا الظَّنُّ بِأَذَى الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الْمَعَاصِي مَجْلَبَةُ الْهَلَاكِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:أَنَّهَا تَسْتَجْلِبُ مَوَادَّ هَلَاكِ الْعَبْدِ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ،فَإِنَّ الذُّنُوبَ هِيَ أَمْرَاضٌ،مَتَى اسْتَحْكَمَتْ قَتَلَتْ وَلَابُدَّ،وَكَمَا أَنَّ الْبَدَنَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا إِلَّا بِغِذَاءٍ يَحْفَظُ قُوَّتَهُ،وَاسْتِفْرَاغٍ يَسْتَفْرِغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيَّةَ،الَّتِي مَتَى غَلَبَتْ أَفْسَدَتْهُ،وَحِمْيَةٍ يَمْتَنِعُ بِهَا مِمَّا يُؤْذِيهِ وَيَخْشَى ضَرَرَهُ،فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ إِلَّا بِغِذَاءٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ،تَحْفَظُ قُوَّتَهُ،وَاسْتِفْرَاغٍ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ،تَسْتَفْرِغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ

---

[٢٠٥] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١١٢)(٢٨٠٠) ضعيف

وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيَّةَ مِنْهُ،وَحِمْيَةٍ تُوجِبُ لَهُ حِفْظَ الصِّحَّةِ وَتَجَنُّبَ مَا يُضَادُّهَا،وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِ مَا يُضَادُّ الصِّحَّةَ.

وَالتَّقْوَى:اسْمٌ مُتَنَاوِلٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ،فَمَا فَاتَ مِنْهَا فَاتَ مِنَ التَّقْوَى بِقَدْرِهِ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَالذُّنُوبُ مُضَادَّةٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ،فَإِنَّهَا تَسْتَجْلِبُ الْمَوَادَّ الْمُؤْذِيَةَ وَتُوجِبُ التَّخْلِيطَ الْمُضَادَّ لِلْحِمْيَةِ،وَتَمْنَعُ الِاسْتِفْرَاغَ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ.

فَانْظُرْ إِلَى بَدَنٍ عَلِيلٍ قَدْ تَرَاكَمَتْ عَلَيْهِ الْأَخْلَاطُ وَمَوَادُّ الْمَرَضِ،وَهُوَ لَا يَسْتَفْرِغُهَا،وَلَا يَحْتَمِي لَهَا،كَيْفَ تَكُونُ صِحَّتُهُ وَبَقَاؤُهُ،وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:[٢٠٦]

جِسْمُكَ بِالْحِمْيَةِ حَصَّنْتَهُ ...مَخَافَةً مِنْ أَلَمٍ طَارِي

وَكَانَ أَوْلَى بِكَ أَنْ تَخْشَى ...مِنَ الْمَعَاصِي خَشْيَةَ الْبَارِي

فَمَنْ حَفِظَ الْقُوَّةَ بِامْتِثَالِ الْأَوَامِرِ،وَاسْتَعْمَلَ الْحِمْيَةَ بِاجْتِنَابِ النَّوَاهِي،وَاسْتَفْرَغَ التَّخْلِيطَ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ،لَمْ يَدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا،وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا،وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.[٢٠٧]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٠٦] – جالب السرور لربات الخدور (ص: ١٩)

[٢٠٧] – الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء (ص: ٥١– ١٠٩)

الفهرس العام

الباب الأول ٣

الخلاصة في أحكام المعصية ٣

الزَّلَّةُ : ٣

أَقْسَامُ الْمَعَاصِي بِاعْتِبَارِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ عُقُوبَةٍ : ٤

أَقْسَامُ الْمَعَاصِي بِاعْتِبَارِ مَيْلِ النَّفْسِ إِلَيْهَا ٦

اسْتِدْرَاجُ أَهْلِ الْمَعَاصِي بِالنِّعَمِ ٩

أَحْوَالِ النَّاسِ فِي فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي: ١٠

التَّوْبَةُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ: ١١

الإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ: ١٢

التَّصَدُّقُ عَقِبَ الْمَعْصِيَةِ: ١٤

سَتْرُ الْمَعْصِيَةِ : ١٦

الْمُجَاهَرَةُ بِالْمَعَاصِي: ١٨

سَفَرُ الْمَعْصِيَةِ ١٨

أَثَرُ مُقَارَنَةِ الْمَعَاصِي لِأَسْبَابِ الرُّخَصِ: ٢٣

إِعْطَاءُ الزَّكَاةِ لِابْنِ السَّبِيلِ الْمُسَافِرِ فِي مَعْصِيَةٍ ٢٣

إِعْطَاءُ الزَّكَاةِ لِلْغَارِمِ الْمُسْتَدِينِ فِي مَعْصِيَةٍ: ٢٤

إِجَابَةُ دَعْوَةٍ مُقْتَرِنَةٍ بِمَعَاصٍ ٢٤

الْوَقْفُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ: ٢٤

الْوَصِيَّةُ لِجِهَةِ الْمَعْصِيَةِ : ٢٥

نَذْرُ الْمَعْصِيَةِ ٢٥

طَاعَةُ الْمَخْلُوقِ فِي الْمَعْصِيَةِ: ٢٦

الإِجَارَةُ عَلَى الْمَعَاصِي: ٢٦

عِصْمَةُ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمَعَاصِي ٢٧

الباب الثاني ٢٨

أضرار المعصية على النفس والبدن ٢٨
حِرْمَانُ الْعِلْمِ ٢٨
حِرْمَانُ الرِّزْقِ: ٢٨
وَحْشَةٌ يَجِدُهَا الْعَاصِي فِي قَلْبِهِ ٢٩
وحشة بينه وبين الناس : ٢٩
قَدْ لَا يُؤَثِّرُ الذَّنْبُ فِي الْحَالِ: ٣٠
تَعْسِيرُ أُمُورِهِ عَلَيْهِ: ٣١
ظُلْمَةٌ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةً: ٣٢
الْمَعَاصِي تُوهِنُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ: ٣٢
طُولُ الْعُمُرِ وَقِصَرُهُ: ٣٣
تَوَالُدُ الْمَعَاصِي: ٣٤
الْمَعْصِيَةُ تُضْعِفُ إِرَادَةَ الْخَيْرِ: ٣٥
إِلْفُ الْمَعْصِيَةِ: ٣٥
الْمَعَاصِي مَوَارِيثُ: ٣٦
هَوَانُ الْعَاصِي عَلَى رَبِّهِ: ٣٦
هَوَانُ الْمَعَاصِي عَلَى الْمُصِرِّينَ: ٣٧
شُؤْمُ الذُّنُوبِ ٣٧
الْمَعْصِيَةُ تُورِثُ الذُّلَّ: ٣٨
الْمَعَاصِي تُفْسِدُ الْعَقْلَ: ٣٩
الذُّنُوبُ تَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ: ٣٩
الذُّنُوبُ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ٤٠
مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ٤٣
حِرْمَانُ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ. ٤٤
مَا رَآهُ الرَّسُولُ - ﷺ - مِنْ عُقُوبَاتِ الْعُصَاةِ ٤٤
الذُّنُوبُ تُحْدِثُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ: ٤٦

الْمَعَاصِي سَبَبُ الْخَسْفِ وَالزَّلَازِلِ ٤٩
تَأْثِيرُ الذُّنُوبِ فِي الصُّوَرِ ٤٩
الذُّنُوبُ تُطْفِئُ الْغَيْرَةَ ٥١
الْمَعَاصِي تُذْهِبُ الْحَيَاءَ ٥٣
الْمَعَاصِي تُضْعِفُ فِي الْقَلْبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ ٥٥
الْمَعَاصِي تُنْسِي اللَّهَ ٥٦
الْمَعَاصِي تُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ ٥٧
الْعَاصِي يَفُوتُهُ ثَوَابُ الْمُؤْمِنِينَ ٥٨
الْمَعَاصِي تُضْعِفُ الْقَلْبَ ٥٩
الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ ٦٠
الْمَعَاصِي تُلْقِي الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ فِي الْقُلُوبِ ٦٢
الْمَعَاصِي تُوقِعُ فِي الْوَحْشَةِ ٦٢
الْمَعَاصِي تُمْرِضُ الْقُلُوبَ ٦٣
الْمَعَاصِي تُعْمِي الْبَصِيرَةَ ٦٥
الْمَعَاصِي تُصَغِّرُ النَّفْسَ ٦٦
الْمَعَاصِي فِي سِجْنِ الشَّيْطَانِ ٦٦
الْمَعَاصِي تُسْقِطُ الْكَرَامَةَ ٦٧
الْمَعْصِيَةُ مَجْلَبَةٌ لِلذَّمِّ ٦٨
الْمَعْصِيَةُ تُؤَثِّرُ فِي الْعَقْلِ ٦٩
الْمَعَاصِي تُوجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ ٧٠
الْمَعَاصِي تَمْحَقُ الْبَرَكَةَ ٧٢
الْمَعْصِيَةُ تَجْعَلُ صَاحِبَهَا مِنَ السَّفَلَةِ ٧٦
الْمَعَاصِي تُجَرِّئُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْدَاءَهُ ٧٩
الْمَعَاصِي تُضْعِفُ الْعَبْدَ أَمَامَ نَفْسِهِ ٨٠
الْمَعَاصِي تُعْمِي الْقَلْبَ ٨٣

الْمَعَاصِي عَدُوٌّ لَدُودٌ ٨٦
ثَغْرُ الْأُذُنِ ٩٠
ثَغْرُ اللِّسَانِ ٩١
النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ ٩٣
الْمَعْصِيَةُ تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ ٩٦
الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ ٩٩
الْمَعْصِيَةُ تُبَاعِدُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَلِكِ ٩٩
الْمَعَاصِي مَجْلَبَةُ الْهَلَاكَ ١٠٣